حواء في دبي...

سمير الجندي



حواء في دبي

سمير الجندي

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

00972022340035

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

الطبعة الأولى (2014)

ISBN:978-9950-383-517

صورة الغلاف

الفنان إسماعيل شموط

سمير الجندي

حواء في دبي...

رواية



(1)

تلف جسدها بعباءة سوداء، تجلس على مقعد في طرف بهو مطار الملكة علياء البناء الجديد، أمام البوابة المؤدية للطائرة، وبيدها جهاز هاتف تعبث أناملها الدقيقة بأزراره، فلا تلتفت لشيء آخر، يبدو عليها التركيز بالجهاز لدرجة أنها تكاد لا تشعر بما حولها، المكان بطبيعته هادئ، لا يكسر صمته سوى نقرات أحذية نساء عصريات، أحذيتهن عالية جدا بحيث تبدو الواحدة منهن كأنها محلقة في الهواء، كما تعطي

جسد المرأة شكلا متناسقا، وفي مشيتها إثارة تلهب خيالات الرجال، كل الرجال.

ما زالت صاحبتنا تجلس في ركنها القصي، هي وجهازها النقال وعباءتها الخليجية السوداء، وأناملها التي تتحرك على سطح الجهاز بطريقة تبدو عبثية، ويظهر من تحت العباءة ساقان فتيان ملتفان كالعاج الإفريقي، وكلما انحسر غطاء رأسها يظهر شعرها حريري كستنائي، رشيقة في جلستها، تضع ساقها اليمنى فوق اليسرى، تتغير ملامح وجهها بحسب حركات أناملها فوق أزرار الجهاز النقال. البهو واسع والمقاعد الشاغرة تُشغل بالمسافرين شيئا فشيئا. تركت المكان محاولا اشغال نفسي بالتجول بين الأمكنة التجارية المغلقة لم يحن موعد افتتاحها.

والوقت ما زال مبكرا على موعد الإقلاع، تناولت فنجان قهوة(اسبريسو) مضاعفا، لكن شيئا في داخلي دفعني لعدم المكوث كثيرا في المقهى، على عكس عادتي، فأنا أحب الجلوس في المقهى وأجد راحتي فيه، وهذه المرة رضخت لذلك الشيء الذي دفعني للذهاب إلى بوابة المسافرين إلى دبي، تفقدت الركن الذي تجلس فيه الحسناء، ما زالت تجلس في المكان وما زال جهازها النقال يتلوى بين أناملها العشر دون ملل، تظهر على وجوه المسافرين علامات الإرهاق والتعب، موعد الإقلاع في تمام الساعة الثامنة صباحا أي بعد ساعة من الآن، أخذت أراقب حركات جسدها ويداها وتعابير وجهها الرائعة، فقسماتها الطفولية تُظهرها أصغر من عمرها، أعارتني التفاتة كاملة للحظة واحدة فرأيت

وجها متناسق القسمات أدهشني بجماله، ابتسمتُ لها فبادلتني الابتسامة بأحسن منها، عاد كل منا للعبث بأشيائه؛ هي بجهازها النقال، وأنا بشرب قهوتي السادة، والكراسي كادت تمتلئ بالمسافرين...

فُتحت البوابة، فاصطف المسافرون يحمل كل منهم جوازه وتذكرته، أما هي فقد جلست مكانها لم تأبه بالوقوف كالآخرين، انتظرت حتى نهاية الصف الطويل ثم قامت متوجهة إلى البوابة فمشيت بموازاتها، اقتربت منها بحيث صرت على بعد همسة من عنقها الشفاف، قلت لها صباح الخير سيدتي، فالتفتت نحوي فإذا أنا أمام عينين فاقتا بحسنهما السحر، ووجهٍ أبيض كالبدر في ليل التمام، وشفتين طريتين تنطقان بلغة غابت عن الدنيا منذ أفول

الشمس عن حضارة ماجان، فجمالها يوازي أساطير الجمال الإغريقي عند الآلهة أفروديت، خرجت حروف صباح الخير من ثغرها بانسجام إيقاعي أطرب قلبي؛ فرقصت حواسي الخمس رقصة الحنين إلى عناقها، ثم أضافت قائلة:"هل تعرفني"؟

قلت: لا، ولكنك أول وجه جميل أقابله، وخير ما استفتح به نهاري، ابتسمت حياءً وأطرقت برأسها، لم نتبادل غير تلك الكلمات، وأرقام مجردة لهاتفها النقال، وافترقنا كل في طريق: هي في مقعد خلفي وأنا في مقعد رجال الأعمال الأمامية، لم أرها بعد هذه اللحظة افترقنا، وكأنني في حلم جميل انتهى لحظة دخولنا الطائرة...

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بدلت ملابسي ببطء ممل من شدة تعب يوم طويل، أخرجت كل ما في جيوبي، فالتقت يدي بقصاصة ورق كدت ارمي بها في سلة المهملات القابعة في زاوية الغرفة لولا أني تذكرت مصدرها، فتّحتها فإذا برقم هاتفها مستسلما في حضن الورقة الصفراء، مررت على الرقم متفحصا، انتابتني رعشة وإحساس غريبين، ثمة ألفة بيني وبين الأرقام العشرة، تناولت هاتفي وطبعت أرقامها بحركة كأنها لا إرادية، سكتت الدنيا مرة واحدة وأنا انتظر صوتها في الطرف الآخر، لم اسمع إلا خفقات قلبي التي ثارت على صمت المكان، وفقدت الأمل عندما طال انتظاري، مرت دقائق خمس قبل أن يرن هاتفي، مرتْ كأنها دهر من الزمن، حسبت قلبي يقفز من بين

ضلوعي وأنا أقرأ أرقامها على شاشة هاتفي النقال، تلبكتُ كطفل تُرك وحده أمام متجر للألعاب، فضغطت بالخطأ على الزر الأحمر، كرهت نفسي لذلك.

لم يكن أمامي سوى إعادة الاتصال على أمل الوصول إليها قبل أن تصلها الخيبة، وبالفعل أعدت الاتصال، فأجابت بأسرع مما توقعت:"مرحباً"

- مرحباً، كيف حالك؟
- لطفا من المتكلم؟
- أنا أحمد.
- من أحمد؟

- ألا تذكرين؟ فقد تقابلنا في المطار هذا الصباح، وكنت تجلسين في طرف القاعة؟ تضعين عباءة سوداء، وتحدثنا قليلا وتبادلنا الأرقام؟

- نعم، نعم، تذكرتك تماما، ولكن ألا تعتقد بأن الوقت متأخر؟

- أجل، ولكن، لي عذري، فقد ترددت قبل أن أتصل بك، بل إنني ترددت كثيرا، لدرجة أنني لم أفكر بشيء غيرك، حتى شعرت أن حياتي ستتوقف عند حافة لقائنا الصباحي الجميل.

- ولكنك بالكاد تعرفني أو حتى تعرف شكل وجهي، فما الذي حملك على التفكير بي لهذه الدرجة؟

- الواقع انك أسرتني بعينيك وتناسق حركاتك ورائحة العبير المتطاير من أنفاسك الطاغية، وإذا نسيت فلن أنسى جمال صباحك الفتّان.
- أين تقيم؟
- في دبي
- وأنت؟
- أنا في "أبو ظبي".
- أرجو أن تسنح الفرصة للقاء...
- ربما.

تمنت لي ليلة سعيدة وأغلقت السماعة بأدب جم...

نمت ليلتي أحلم بهذا الصوت الرخيم، كانت تنطق فتطرب ملائكة القدر، وتقترب النوارس من وجه القمر،

فينسكب الظل على أبراج المدينة ليعلن عن اخضرار كوكب الزهرة، وتتفتح أبواب السماء كوردة جورية تعانقت مع نسمات نيسان.

أول ما فتَّحتُ عينيَّ عليه في صباح اليوم التالي؛ طيفها الذي سكن كل ركن من أركان حياتي، جدار الغرفة المقابل لسريري البارد، خلف زجاج نافذتي الشرقية وقد التف بشعاع الشروق الدافئ، وعلى كرسي خشبي قديم ورثته عن جدي زمن رحيل السنونو قبل نحو من خمس عشرة سنة عشتها وحيدا إلا من الذكريات التي أورثنيها جدي أيضا، وبعض بطاقات صفراء كتبت عليها بقلم أخضر قريب من خضرة الأرض الطيبة التي نسجت جدتي عنها كل الحكايات. لا أتذكر تفاصيل تلك الحكايات؛ لأنني كنت أنام على

حجرها كلما بدأت تحكي لي حكاية من حكاياتها، لا أدري كيف كان سلطان النوم يسلبني من بين كلمات جدتي قبل أن تكمل حكاياتها، كان صوتها دافئا ونبراتها كالمخدر الذي يدب في الأوصال فيسكرني لدرجة الثمالة، لم يأتني هذا الشعور منذ رحيل جدتي، حتى أن خضرة الأرض قد تبدلت، أخذت تميل إلى الاصفرار.

ما زال طيفها أمامي، يعبث بمخيلتي. تُرى أهو الحب؟ أم هي نزوة من نزوات النفس؟

لم أجد إجابة واضحة على تساؤلي! ولم أترك لنفسي الخوض في تفاصيل مشاعري، فمنذ انفصالي عن زوجتي قبل عشر سنوات لم أجرؤ على الخوض بأي مغامرة من شأنها أن تطيح بحريتي المقدسة، عشر

سنوات وأنا حرّ بعيداً عن أي ارتباط وجداني من أي نوع، عشر سنوات ملكت بها نفسي، وترفعت عن كل العذابات، أتحرك كيفما أشاء ومتى أشاء وأين أشاء، عشت حرا طليقا بعيدا عن كل القيود والمنغصات، تخلصت من بوادر المرض، ومن شوائب الماضي الأليم، ومن تسلطهن، وقهرهن، وقسوتهن، عشر سنوات من النقاهة حتى صارت نفسي صافية كالبلور، فما الذي حدث لي هذه المرة؟ أأترك الأمور تسير في مسارها، أأتخلى عن حريتي مرة واحدة وأتبع قلبي؟

لم يكن بالأمر الهين على نفسي أن تحزم أمرها، فعقلي الذي تفادى مخاطر الولوج في علاقة رغم كل المؤثرات الجمالية الأنثوية عبر سنين طويلة، أجده اليوم وقد تراخى، يكاد يتخلى عن إرادته أمام صوتها العذب.

والغريب في الأمر، أن نفسي هي التي تحاول استنهاض عقلي لحثه على التروي والتفكير بروح المقاومة، وتفادي الانشقاق، فلطالما كانت النفس ضحية لقرار العقل في السنوات العشر الماضية، لدرجة أنها عافت العقل في وقت من الأوقات، وتمنت أن يتجمد، أو يتحجر لمدة خمس دقائق كي تستطيع فيها العبث بمقدرات الحياة، فلم يتحقق لها ذلك، أما اليوم فثمة أمر مختلف؛ فما الذي حدث؟ فهل كان سحرها أقوى من إرادة العقل؟ وهل للكيمياء دور في هذا الأمر؟ وهل للمكان تأثير؟ وهل لألوانها الأسود والأبيض والأزرق والكستنائي والأحمر دخل؟ وهل للطبيعة ولكل ما هو مدور حكم؟ فما الذي حدث؟

تساؤلات كثيرة ولا إجابات سوى أنني أرغب برؤية هذه المرأة بشدة، وأتوق لسماع صوتها بقوة، لقد أصبحت منجذبا إليها تجذبني قوة خفية آسرة، أحنّ لذكراها دونما تردد وبتلقائية، أخذت أتصل بها دون تخطيط لما سأقول، سأترك الأمر على عواهنه، وليحدث ما يحدث، فطالما القلب والعقل رضخا للفكرة، فلا شأن للنفس بالأمر.

لم يكن بالأمر الهين أن اطلبها على الهاتف، فقررت إرسال رسالة جس نبض، فكتبت لها كلمة واحدة: (مرحباً)، وانتظرت، لكنني لم أنتظر طويلاً هذه المرة، إذ جاءت الإجابة بكلمة واحدة لا أكثر؛ (مرحبا)، فهل هي أيضا تستخدم نفس أسلوب جس النبض؟ أيقنت بأنني أمام امرأة ليست عادية، بل حادة الذكاء، مما زاد

عندي الشعور بضرورة توخي الحذر، فأنا حريص بأن ابني معها علاقة طويلة الأمد، إذ من الصعب، بل النادر العثور في حياتك على امرأة بهذا القدر من الذكاء والجمال معا، لربما تقابل امرأة آية في الجمال، ولكنك عندما تبدأ معها بحديث فإن جمالها يسقط في بؤس جهلها، فتحاول الهرب من أمامها بأية ذريعة، ولكن هذه المرأة هي كنز يسير على قدمين صغيرتين تحملان جسداً من المرمر، ليست كأي واحدة منهن، فلن أسمح بفقدها، فهي فتاة أحلامي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

جمعت كل حواسي وخبراتي في التعامل مع النساء من مختلف الأطياف، لرسم خوارزمية توصلني إلى نيل

ثقتها ومحبتها وتقديرها، فلن اترك الأمر إلى الصدف أبدا.

كتبت لها رسالة نصية أخرى، قلت: كيف حالك؟

أجابت: عفوا من أنت؟ ابتسمت في قرارة نفسي من تجاهلها الواضح، قلت: أنا أحمد الذي قابلتك في المؤتمر وتحدثنا عبر الهاتف.

- آه، تذكرتك.

- صوتك دافئ على الهاتف، يبعث في النفس الطمأنينة، فهل أستطيع سماعك يا سيدتي؟

- سكتت، فلم تجب.

فطلبتها في الهاتف، رفعت السماعة، لكنها لم تنبس ببنت شفة.

- أنا مرة ثانية.

- يسعدني ذلك.

- صوتك ملائكي.

- قلت لك... لا تبالغ.

- بصراحة، أنا عاجز عن وصف جمالية النغم المنبعث مع ترددات صوتك الذي يبهج حواسي دفعة واحدة.

- رغم المبالغة ... إلا أن الإطراء يسعدني.

- هو ليس بالإطراء، إنما هي الحقيقة، فأنت لوحة متكاملة صنعتها الآلهة لحظة تجلي.

- كلماتك تطرب حواسي.

- كلماتي تنثال من بين أصابعي كنهر يتدفق من أعالي السماء، من ذلك المكان الذي يتربع فيه طيفك ملكا لكل الأحاسيس الإنسانية يا سيدتي.

- أحمد.

- نعم.

- لا أستطيع مجاراتك في هذا الحديث.

- يخيل إلي بأنني ما عدت أميز بين الأصوات الثلاثة الطاغية على هذا الكون في هذه اللحظة؛ صوتك الرقيق، وصوت نبضي، وهدير أنفاسك.

- رفقا بحالك أحمد.

- رفقا بي سلمى.

- إلى اللقاء.

- هل قلت إلى اللقاء؟ فهل لي بطلب اللقاء؟

لم تجب، وأغلقت سماعة الهاتف دون أن تضيف كلمة واحدة، فأيقنت أنها تتعزز، فأحببت تعززها هذا، لأنه يليق بأمثالها التعزز والشموخ.

2

بعد قيلولة ذلك اليوم، حملت حاسوبي النقال وذهبت إلى مقهى "لاغوفريت" في "سيتي سنتر ديرة". اعتدت الجلوس في هذا المقهى لمراقبة الناس ولأخذ جرعة نفسية من الراحة. كان المقهى ممتلئا عن بكرة أبيه. فانتظرت قرابة الربع ساعة قبل أن تتوفر لي طاولة وكرسي للجلوس، طلبت كوبا من "كابوتشينو" فقدمته لي نادلة آسيوية مع ابتسامة عريضة، أخذت أرقب المارة بجانب حافة المقهى، وأتفحص الوجوه

والأجساد الرشيقة، ثم أشرب مشروبي الساخن الذي أحبه دون سكر، وأتناول قطعة البسكويت التي تقدم مع المشروب الساخن، وبينما أنا كذلك، إذ بصديقتي القديمة تأتي باتجاهي مسرعة وتطبع على وجنتي قبلتين، جلستُ كعادتي بها، فطلبت لها مشروبها المفضل " ليمون بالنعناع" ...

صديقتي "كارين" من أصل ألماني تعمل سكرتيرة قانونية في مبنى التجارة العالمية، ولكنها لا تشبه الألمان بمظهرها، إلا أن لهجتها الألمانية سمة من سماتها، هي تتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها، ليست طويلة كالألمان؛ طولها بين بين، بيضاء، شعرها خروبي طويل، ووجهها

مستدير، مكتنزة الصدر، نحيفة الخصر، خضراء العينين، لطيفة المعشر، مثيرة لدرجة البهجة.

قضيت أنا وكارين طيلة المساء، ذهبنا إلى شقتها خلف المستشفى الأمريكي في بر دبي، جهزتُ بعض المعكرونة مع صلصة اللحمة المفرومة والبنادورة، ثم تناولنا بعض النبيذ ومارسنا الحب كعادتنا، ليس ثمة التزامات من أي نوع بيني وبين كارين، نحن أصدقاء مقربون، ولكننا لسنا عشاقاً كالعاشقين، كنت أحب قضاء الأوقات معها، وأستمتع كثيراً بمضاجعتها بين الفينة والأخرى، لكنني في هذا المساء لم أجد أي شكل من أشكال المتعة برغم إثارتها، فقد كان جسدي هنا فقط، أما عقلي وتركيزي فكانا هناك، مع سلمى المرأة التي ملكت كل ركن من أركاني، وسَبَتْ عقلي ووجداني،

ولم تترك أي حيز لسواها، فاستغربت كارين شرود ذهني، لكنها لم تعلق، ولم تقحم نفسها بالسؤال.

استأذنتُ كارين بالمغادرة، فطلبتْ مني المكوث حتى الصباح، اعتذرت عن البقاء بلطف شديد، ولما وجدتني مصمما على الرحيل تمنت لي ليلة سعيدة، وابتسمت ابتسامة من يدرك أمرا ما، فلم اشك بأنها أيقنت بما يجول في فكري وقلبي، فقد كانت من الذكاء بمكان لتدرك بإحساسها حالة العشق التي تعتريني.

سرت على قدمي من شقة كارين إلى بيتي خلف برجمان، عصفت بذهني الأفكار، سرت كالهائم، لم أتنبه إلى نفسي إلا وأنا أمام البيت، كانت المسافة غير كافية لاستكمال تلك الأفكار التي انصبت على علاقتي بسلمى، تلك المرأة التي سلبتني تركيزي في

عملي وفي سرير كارين، المرأة التي ملكت كل حواسي بضربة واحدة من عينيها فكانت على ما يبدو هي القاضية.

لم يكن ضمن مخططاتي أو أحلامي عندما جئت إلى دبي أول مرة أن تكون لي أي علاقة من أي نوع مع امرأة غريبة، أو حتى تناول المنكرات، فقد نشأت في عائلة محافظة في مدينة القدس، كنت لا أقطع فرضا من فروضي الدينية، أصلي معظم الأوقات في المسجد الأقصى، وأزور أخواتي في جميع المناسبات؛ في العيدين وفي ذكرى الاسراء والمعراج والمولد النبوي الشريف، لكنني اليوم بعد انتقالي للعمل والسكن في دبي، تعرفت على زملاء العمل شاركتهم بعض مناسباتهم، فجاملتهم باشياء لم يكن لي أن أقوم

بها في غير هذه المدينة العصرية، واليوم أشعر بارتياح عظيم، بعد أن أنهيت علاقتي الحميمية بكارين، لتبقى علاقة صداقة جميلة، نقية...

مرت أيام ثلاثة، ولم أسمع من سلمى كلمة واحدة، ظننت بأنها ستبادر بالاتصال، لكن ظني خاب عندما لم تتصل، فكان علي البحث عن أكثر من مبرر للمرأة التي أحب؛ ربما ليس لديها الوقت، أو ربما أضاعت رقم هاتفي وهذا احتمال كبير أيضا، ربما رغبت بالاحتفاظ ببريستيجها كامرأة سيدة بكل معنى الكلمة، ولذلك علي أنا المبادرة بالاتصال...

هكذا أخذت أبحث في دهاليز عقلي عن مبرر لعدم اتصالها، وفي نهاية الأمر قررت أن أتصل بها في صباح اليوم التالي...

هي أيضاً كانت تنتظر مبادرته في الاتصال، لكنها لم تبحث له عن مبررات، بنفس الوقت انشغلت بابنتها مريم، التي لا تريد استكمال تعليمها، بل تريد الاعتماد على نفسها في الحياة، مريم فتاة آية بالجمال، طويلة القوام ممتلئة، لها وجه كالبدر، تبلغ من العمر العشرين، فقد ولدتها أمها وكان قد مضى على عمرها خمسة عشر ربيعا، ولذلك فإنه من الصعب القول بان مريم هي ابنة تلك الزهرة النضرة سلمى، سلمى تسكن في "أبو ظبي"، ولكنها تقضي معظم أيام الأسبوع في دبي عند مريم التي تسكن مع أخريات يعملن في "باريس جالري" في مركز تسويق ديرة سيتي سنتر، لم تكن مريم بالفتاة المستقرة، كانت دائمة البحث عن عمل جديد، وهذا سبب قلق والدتها، إنها

تبحث عن عمل في شركات كبيرة وفي فنادق الخمسة نجوم، ظنا منها بأن جمالها وحده ممكن أن يكون ورقتها الرابحة في اكتساب وظيفة مهمة.

مريم مفتونة بنفسها، لا تدري والدتها من أدخل في رأسها هذه الأفكار، هي قلقة جدا على ابنتها الوحيدة، والتي خرجت بها من زواج فاشل دام لأكثر من سبعة عشر عاما، حتى أصبحت أثقل حملاً تحمله على كاهلها، مما سبب لها القلق والتعب وعدم الاستقرار النفسي، إنها أمام تحد كبير في تربية وحماية هذه الفتاة المراهقة، فقد أوقعت نفسها في العديد من المشاكل ومنها تلك التي حدثت في مكتب للترجمة والذي وظفها صاحب العمل رغم أنها غير مؤهلة، فوعد بتدريبها على العمل كمساعدة مكتب، قبل

بها لجمالها فقط، مستغلا حاجتها للعمل وتحمسها لقبوله، لكنه لم يدربها ولم يعمل على تأهيلها فبقيت على ضعفها، طلب منها نقل إقامتها إلى كفالته، ليزيد من سيطرته عليها، فبدأ يراودها عن نفسها، ويتحرش بها، ويحضر لها الهدايا ويقدم لها المال ويدعوها لأفخم المطاعم حتى استمرأت الحياة، ولما اكتشفت الأم ما آلت إليه ابنتها، وقفت بوجه ابنتها، ومنعتها من هذا العمل، فكرهت البنت أمها واعتبرتها عقبة في طريق سعادتها.

عادت بها إلى "أبو ظبي" فلم يعجبها ذلك، فبقيت تبتدع المشاكل مع والدتها إلى أن رضخت، فوافقت لها بالعودة إلى دبي بشرط أن تعمل في مكان تجيد

العمل به، فعملت كبائعة مستحضرات تجميل في "باريس جاليري"...

"باريس جاليري" متجر شهير في مدينة دبي، له فروع في معظم مراكز التسوق في المدينة، مريم تعمل في فرعه بمركز ديرة للتسوق، في وسط مدينة دبي، يأتي إلى هذا المركز مختلف فئات الناس، الغني والمتوسط الحال، ورجال الأعمال والعمال، نساء ورجال، عائلات بكاملها تأتي للتسوق في هذا المركز، والمتسكعون ورواد المقاهي يأتون إليه، الناس تأتي إليه بأعداد كبيرة طيلة ساعات اليوم، وكان يفد على باريس جاليري نساء ورجال منهم من يأتي للشراء وكثير منهم يأتي للتسكع ومغازلة العاملات الجميلات في هذا المتجر الذي يختص ببيع العطور ومنتجات الجمال العالمية... تتعرض مريم

لعروض كثيرة أثناء عملها، منها ما هو سخي ومبالغ فيه، ومنها ما هو بضع كلمات غزل من الرجال وأحيانا من النساء، آخرها عندما حضر أحد رجال الأعمال الذي جلس على كرسي فخم، وطلب من مريم بالذات أن تخدمه، فوضعت أمامه طاولة صغيرة ثم قامت بإحضار عينات من العطور النسائية وأخذت ترش منها على قطع من الورق فيستنشق العطر عن الورقة ثم يطلب منها زجاجة عطر وزجاجة تواليت وعلبة كريم للجسم من نفس الماركة، وكرر هذا الأمر مرات عديدة إلى أن امتلأت الطاولة بمختلف أصناف العطور العالمية، سلم مريم بطاقة الفيزا خاصته لتدفع ثمن العطور ... وضعت مريم زجاجات العطور المختلفة في كيس من الكرتون المقوى وقدمته للرجل، فقال لها:

هذه العطور اشتريتها لك (يا حلوة) وابتسم لها وهو يقدم كرته... بادلته الابتسامة وشكرته، ووضعت الكرت في جيب قميصها الأحمر وتناولت الكيس بيدها تحت وابل من نظرات زميلاتها، ثم أخرجت الكرت من جيب قميصها، تفحصته باهتمام، ابتسمت وهي تقرأ ما فيه، أودعته في حقيبتها وعادت تمارس عملها.

(3)

وفي صبيحة اليوم التالي كان الجو مشرقا لطيفا، فقررت الاتصال بسلمى، تمنيت أن يكون حديثي معها بجمال هذا اليوم البديع، طلبتها غير متردد، انتظرت على نار أحر من الجمر حتى أجابت على هاتفي بصوتها الناعم الرقيق والذي يضفي عليه كل هذا الدفء هدؤها الرائع...

قلت لها بأنني قادم إلى " أبو ظبي" فربما تسنح لنا الفرصة لشرب فنجان قهوة معا!

ضحكت ضحكة أسكرتني بدلالها، وهي تقول بأنها غير متواجدة في "أبو ظبي" وأنها متواجدة في دبي منذ الأمس!

دونما تردد قلت لها في الواقع أنا بمنتصف الطريق إلى أبو ظبي ولا شأن لي بالمكان؛ غير أنني قادم لرؤيتك، ولا بأس من اللقاء في دبي، فوافقت من فورها على اللقاء وهي ما زالت تضحك بلطف شديد...

اتفقنا على اللقاء الفعلي الأول، غيرت مسار سيارتي عند أول منعطف صادفني، وعدت أدراجي مستنفذا السرعة القصوى المسموحة لي على طريق أبو ظبي دبي السريع، أشجار النخيل على امتداد الطريق، تضفي عليه سمة من سمات الجمال الطبيعي، تسير السيارات بكافة ألوانها وأنواعها وسرعاتها موزعة

على المسارب الأربعة للطريق السريع، كدت أجزم بأن سيارتي وأفكاري أسرع شيء على هذا الطريق، لولا سيارة فراري حمراء كانت تسير كالسهم قاطعة المسافات بلمح البصر، لكنني تذكرت ما قاله أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي لسائقه عندما أسرع قليلا عن المعتاد ظنا منه بأن سيده تأخر عن اجتماعه في البرلمان، حين قال له: " تمهل يا بني، فنحن في عجلة من أمرنا"...
خففت سرعتي، وسرت على المسرب اليمين طيلة الطريق إلى دبي، وكانت أفكاري تتلاطم مع بعضها بعضاً. لماذا اخترت مقهى لاجوفريت للقائي الأول معها؟ أليس من الأجدى لو تقابلنا في ستاربكس مثلا أو في مول دبي؟ "لاجوفريت" غير هادئ، وأنا بحاجة لكل لحظة هدوء؛ كي استفرد بها وأفرد لها مشاعري على

بساط حريري من موسيقى الجاز التي اعتدت سماعها في مقهى كوستا، فلماذا لم أقترح عليها مقهى كوستا؟

صرت أقلب أفكاري بسرعة الفيراري، فماذا سأقول؟ وماذا تتوقع مني هي؟

يُخيّل إلي بأن سيارتي التويوتا البيضاء تستمع إلى تأولاتي بوقار كلاسيكي راقٍ، وتسير بسرعة تنسجم مع دقات قلبي، لأول مرة أشعر ببعد المسافة بين أبو ظبي ودبي، على الرغم من أني لم أجتز إلا نصف المسافة قبل أن أقفل عائدا. أهي تباريح الشوق التي تبعد المسافات إلى حدود اللانهاية؟ أم هو الحنين الذي يطيل الزمان فيبدو كأنه بلا حراك، تماما كليل امرئ القيس

الذي ارتبط باستمرارية موج البحر، فأرخى سدوله بأنواع من الهموم والقلق مما هو آت؟

عكر صفوي، الازدحام المروري الخانق في شارع الشيخ زايد، إنه وقت الظهيرة، ساعة خروج الموظفين إلى استراحاتهم، وخروج طلبة المدارس من مدارسهم، الجميع مرة واحدة يتدفقون إلى الشارع بسياراتهم الفارهة، وكأن لا أحد بقي في بيته في هذه اللحظة. والغريب في الأمر أن الطقس تبدل فجأة وحلت بعض الغيوم البعيدة حاجبة لون السماء الزرقاء، فصار كل شيء رمادياً، الأبراج المصطفة على جانبي الطريق كحراس قصور بكنجهام الملكية، لا تتحرك ولا تتفاعل مع رمادية الحياة، ولا مع ازدحام السيارات الخانق، تراها

مبتسمة وعابسة، شامخة وذليلة، صارخة وصامتة بدرجة غريبة غرابة الحياة المزدحمة في هذه المدينة العصرية التي تفوقت على مثيلاتها في أمريكا وأوروبا. الأرصفة الواسعة وواجهات المحلات الفارهة، والناس القلائل الذين يسيرون على أقدامهم في هذا الجو المشحون بالأفكار المتلاطمة، وأرصفة تتسع وتضيق، والجسور تتقاطع فوق الطريق، وجسر واحد يسير بمحاذاة الطريق من ابن بطوطة إلى القصيص، يسير عليه قطار مؤهل لنقل الناس في كابينات فارهة، جديدة، بل آخر ما توصلت إليه صناعات القاطرات الخفيفة في عالمنا هذا، ربما يكون السفر بالقطار أقل كلفة، يختصر المسافات والزمن، ويوفر الأمن والأمان...

ما زلت أعالج أمر الوقت والمسافات وتماهيها مع أفكاري المبعثرة في حيز واحد هو سلمى، ولقائي بها في لاجوفريت بعد ثلاثة أرباع الساعة، والوقت يجري بسرعة أوسين بولت، لكن المسافات لا تضيق أبداً هذه المرة...

سرت بمحاذاة أفكاري، وقلقي من التأخر عنها في لقائي الأول، لم أكد أنتهي من أزمة شارع الشيخ زايد حتى بدأت السماء بالسخرية مني، فقد أمطرت بطريقة لم أعهدها في دبي، ولم أتوقعها أبدا، أمطار ورمال ورعود وفيضانات كبيرة! لماذا تسخر مني السماء، لماذا تتعاكس الطبيعة مع حلمي الشفاف؟ لا أجد إجابات على أسئلتي التي ربما تكون محيرة، وربما تكون عادية في الوقت والمكان العاديين، إنما هنا في هذه الظروف فإنني عجزت عن إيجاد مبرر واحد لما يحصل، أُغلقت الشوارع

وغطت مياه الفيضانات دواليب السيارات، صار السائقون يخرجون من سياراتهم، ويتركونها لقمة سائغة في جوف الفيضان، الماء يتدفق بسرعة كبيرة، كأن السماء فتحت سدودها مرة واحدة لتبتلع المياه في طريقها كل ما هو ثابت ومتحرك، كنت خائفا جدا، وخوفي ألا أصل سلمى بالوقت المحدد، بينما خوف الناس من سرعة جريان المياه العكرة، التي تحمل معها الرمال والغبار وقطعاً بلاستيكية، وتجري السيارات الخفيفة فكأن الرياح تطوحها كدمية صغيرة في يد صبي مشاكس يكره ألعابه البلاستيكية لدرجة الملل منها ومن أخيه الصغير الذي يحصل على مراده بدموع كدموع التماسيح الأسيوية...

شعرتُ بيد القدر تضع ثقلها في طريق أحلامي، هذا اليوم الذي تضاربت فيه كل خططي، وسارت حياتي بمسارات متعاكسة، أذهب إلى "أبو ظبي" فإذا بها في دبي، أعود إلى دبي مسرعاً، فإذا بالطقس الذي كان في الصباح لطيفا يتبدل فجأة، فتُغلق الطرقات بالفيضانات، والكتل المعدنية التي غادرتها الروح، سيارات تقف في الطريق عاجزة عن السير بأي اتجاه، وأنا محاصر هنا في سيارتي وبين تيارات أفكاري، وحلمي في لقائها يتبدد أمام ناظري رويدا رويدا...

تحولت السيارات إلى ما يشبه القوارب، فكرت بالخروج من السيارة وتركها إلى مصيرها المجهول، ولكنني عدلت عن الفكرة عندما رأيت أن لا طريق لي حتى على القدمين، لن تكون لي فرصة في النجاة خارج السيارة،

فآثرت البقاء حتى يأتي أمر اللهّ، حاولت الاتصال لكن هاتفي النقال فارغ من الشحن، انقطعت عن الدنيا وعن الحضارة وعنها مرة واحدة، وصرت كأنني بصحراء لا بوادر للحياة فيها...

امتلأت الطرقات بسيارات النضح التي تشفط مياه الفيضانات وتنقلها إلى مكان بعيد، لكن الماء المتجمع أكبر بكثير من مقدرة هذه السيارات على نقل المياه بالسرعة الممكنة...

فات موعد اللقاء، فالساعة الآن السادسة مساء، ثلاث ساعات مضت على موعد اللقاء، ولا أظنها تنتظر لغاية الآن، لكنني وصلت أخيرا "لاجوفريت" تفحصت جميع وجوه رواد المقهى فردا فردا، حتى بانت علامات الدهشة والاستغراب على وجوه الجالسين في المقهى

من رجال ونساء، خُيل إليَّ بان شكلي مريب، وبأن جميع من في المقهى ينظرون نحوي، جلست على كرسي في طرف المقهى البعيد، أخذت ألملم شتات نفسي شيئاً فشيئاً، لكن الشرود سيطر على وضعي العام، ولم أعد لوعيَّ إلا على صوت النادلة الأسيوية تسألني إذا ما رغبت بتناول طعام أو شراب، طلبت فنجان قهوة بدون سكر، أخذت أرتشف منه وأنا أنظر في اللاشيء، أفكر بما حصل لي في هذا اليوم الغريب، وكنت أواسي نفسي ببعض الأفكار، أو لنقل بعض الأحلام الوردية، هي غير موجودة هنا في لاجوفريت، فعبثت بي الأفكار لكنها ربما تكون في مكان قريب مني، أو ربما ذهبت لتشتري شيئا ما وستعود، ربما هي هنا وأنا لم أرها؟ أخذت أتفحص وجوه النساء بطرف عيني، إذ من

الممكن أنني لم أتنبه لوجودها، ولكن بلا جدوى ولا نتيجة تحقق لقلبي راحته المنشودة...

شربت قهوتي السادة، فطلبت كوبا آخر، ثم طلبت بعض الطعام.

أنا على أمل في أنها ستعود مرة ثانية، انتظرت أربع ساعات حتى بدأ العمال بجمع كراسي المقهى وتنظيف المكان، فلم يكن الأمل على قدر الرجاء، فكنتُ آخر زبون يغادر المقهى...

(4)

كانت الساعة الخامسة تماما عندما غادرت سلمى مقهى "لاجوفريت"، أي بعد ساعتين من موعدها مع أحمد، ولما يئست من حضوره.

حاولت الاتصال به مرارا، لكن هاتفه النقال كان مغلقا، لم تعرف سبب عدم حضوره، أخذت تظن به الظنون، قلقت وخافت، فهل حصل له مكروه؟

لا بد أن أمراً ما قد حدث وإلا فلماذا لم يحضر؟

ربما حدث له مكروه _ لا قدَّر اللّه_ في طريق عودته، هي لم تعرف بأمر الأمطار والفيضانات وإغلاق الطرقات، كانت تجلس في مقهى "لاجوفريت" البعيد عن ضوضاء الطرقات، والبعيد عن زحمة السيارات، وعن منغصات الحياة، هنا في "لاجوفريت" تجلس بهدوء كبير، جو رومانسي طاغ، تناولت شراب الليمونادة بالنعناع المثلج...

أنهت مريم فترة عملها في محل العطور القريب من لاجوفريت، جاءت لتنضم إلى والدتها لتعودا سوية إلى البيت...

جلست مريم على كرسي مقابل والدتها، تفحصت تقاسيم وجهها... ما بك يا أماه؟ يبدو عليك القلق، فما الذي يقلقك؟

- لا شـــيء.
- ولكـن وجـهك مخـطوف ولـونه أصـفـر كـالـكـركـم.
- صـدقا، لا شـــيء...

سـكـتـتا، لم تـنبـسا ببـنـت شـفـة، ألـهـت مريم نفسـها بمبرد الأظافر، الـتـي أخـذت تمرره عـلـى أظافرها الـواحـد تلو الآخـر فكـانـت لا تـنـتـقـل مـن ظـفـر إلى آخـر قـبـل أن تـرتـبـه بـطـريـقـة فـنـيـة دقيـقـة، وكـأنـهـا تـنـحـت لـوحـة فـنـيـة يـعـجـز عـن إنجازها كـبـار فـنـانـي الـعـصـور الـوسـطـى... كـانـت تـنـحـت وتـسـتـرق الـنـظـر نحـو والـدتـهـا، وكـان مـعـظـم رواد المقـهـى يـسـتـرقـون الـنـظـر إلى قـوام مـريم وإلى نـهـديـهـا الأبـيـضـيـن المثـيرين، اللـذين يـكـادان يـقـفـزان مـن تحـت بـلـوزتـهـا الـقـطـنـيـة الـبـيـضـاء، صـدرها شـبـه عـارٍ وجـلـسـتـهـا المثيرة وطـريـقـة

عبثها بمبرد أظافرها ووجهها المبتسم ببهجة من يسعده ازدحام تلك العيون على بؤرة قوامها الفتاك.

لا تنفك سلمى تنظر بكل اتجاه، لعله يأتي من هنا أو هناك، أو على طائر أسطوري يحمله دفعة واحدة ويضعه بجانبها لتعود إليها طاقتها التي استنزفتها ساعات الانتظار البغيضة، ومن ثمّ فقد احتارت في أمر مريم خاصة عندما لاحظت نظرات الرجال المنصبة على ملابسها التي ترفض تدخلها فيها.. أو إبداء رأيها فيما ترتديه منها، وتألمت لأنها تعجز عن السيطرة على تصرفاتها المراهقة، إنها ليست تصرفات مراهقة فحسب ولكنها تصرفات فتاة في سن العشرين استهوتها كلمات الإعجاب التي تنهال عليها كالمطر، وكما قال الشاعر:

خدعوها بقولهم:حسناء...والغواني يغرهن الثناء

وكانت المكالمات لا تكاد تنقطع لدرجة أن والدتها أصبحت تضيق ذرعا بكل تلك الرنات التي تتلقاها مريم بعد منتصف الليل، وعندما تسألها لا تجيبها بردود مقنعة.

لا بد أن أعيدها إلى أبيها في الأردن، هذا قراري النهائي، فأنا لا أتحمل كل هذه المهاترات، بل هذه التصرفات الخطيرة.

استراحت سلمى من فكرة إعادة مريم إلى أبيها في عمان، وقررت في قرارة نفسها أن تعمل على هذا الأمر لا لشيء إلا لإنقاذ ابنتها مما تحمله من أفكار، وما تقوم به من ممارسات لا يقبلها دين ولا ضمير.

(5)

حاولتُ إعادة نفسي إلى نصابها بعد عذاب يوم طويل، ضيق ومعاناة، أمل وخيبة، انتظار وترقب... تقلبت في فراشي، لم استطع ممارسة حياتي، الدنيا صارت كخرم إبرة، الحياة بلا مبررات إنسانية، البيت موحش، والسرير بارد، ومكتبي الذي رافقني معظم سني شبابي صار منغصا... ما أن وصل شحن هاتفي خطه الأخضر، حتى تناولته وبكبسة واحدة أخرجت رقم سلمى حبيبتي، طلبتها وبدني يرجف رجفا، لم يكد يرن

الهاتف حتى ردت بصوتها الملائكي الذي يسلب العقل بتردداته القصيرة، أول كلمة قالتها: " أأنت بخير؟"

_ نعم، لقد انقطعت بي السبل للوصول بالوقت المحدد، وفرغ هاتفي من الشحن، وتعطلت الطريق بسبب مياه الفيضانات... وكم تمنيت الموت على أن لا أجدك بانتظاري... إنني ألتمس منك العذر، أرجو أن تغفري لي هذا الغياب القسري...

تنهدتْ تنهيدة طويلة وقالت: "قلقت عليك كثيرا، الحمد للّه أنك بخير".

هي لا تدري كم أسعدتني كلماتها هذه، ففيها مقدار من الحب لم أتوقع أن أناله منها بهذه السرعة، إنها لم تسيطر على انفعالها وقلقها كما حصل بالأمس،

فبعد أن ضاقت بي الدنيا بما رحبت، ها هي تفتح أبوابها على المصراعين، وبعد أن اسودَّت، أخذ يظللها اللون الوردي المحبب لكل العاشقين، وبعد انسلاخ الفرح عن أيامي، ها هو يرجع يكتسي بجلد السعادة والهناء، بوركت أيتها السماء، وليحيا القدر الذي صنع تلك الغيوم، وأنزلها مطراً غزيراً أفاض به الدنيا، كم أنا سعيد بك أيتها الحياة! كم أنا ممتن للشمس التي تنازلت عن ضوئها عصر ذلك اليوم؛ لتفسح مكانا لانهمار الماء فارتوت الأرض، والشجر صار أكثر اخضرارا، وحملت الطيور حبات القمح في جوفها، لتعود بغنيمتها معززة مكرمة إلى أعشاشها، ها هو زوج الحمام يتناوب على تدفئة فراخه بعد أن تبلل زغب ريشها، وأنا تلقيت رسالتي الأولى بعد أن قلبتها أنامل

آلهة العشق إيزيس، وصادق عليها ازوريس بخاتم المحبة السرمدي... كلماتها تسللت كجدول يسير مع تموجات السنابل في أودية العشق الأسطوري...

أحبك إلى حد الوجع، قالتها وهي لا تدري، تلقف قلبي كلماتها، بل عانقها، ورفع لواء الطاعة فوق منارة السماء، ليعلن أمام الملأ، بأنه دخل أجندة الزمان بعنفوان الشباب الفتي القادر على بناء الحياة كما رسمها الشعراء في دواوينهم الماسية...

كدت من فرط هيامي بكلماتها أن اترك من يدي جهاز الهاتف وأستلقي على سريري، ثم أغمض عيني كي أستحضر طيفها فأعانقه عناق المنتصرين الفاتحين، وأمطره وابلا من قُبل المحبة والهيام الأزلي، لولا أن

صوتها هتف من الجانب الآخر مستصرخا، أين ذهبت يا هذا؟

ما بك؟

_ لا، لا شيء يا سيدتي، ولكنني لما سمعتك تتحدثين بنبرة القلق علي، فاضت شراييني بالدم ولم يعد في بدني متسع لقطرة أخرى، وليس بمقدوري تحمل هذا المقدار من السعادة، فانفجر الدمع من مقلتي فكاد يُغرق قصائد الفرح... أنا معك يا سيدتي... ودائما معك.

_ ما كان عليك أن تقلقني بهذا الشكل، بالأمسِ انتظرتك بعد الموعد الذي اتفقنا عليه ساعتين كاملتين، لقد بدأ قلقي يزداد عندما لم تُجب على هاتفك، خفت أن يكون جرى لك حادث، خاصة وأنت

عائد على الطريق السريع أبو ظبي دبي، الحمد لله خير... عندما عدت إلى البيت مع مريم، أخذت أنظر كل دقيقة تقريبا على هاتفي لعلك أرسلت رسالة فيها ما يطمئن قلبي، وكلما مر الوقت على غيابك زاد القلق حتى وصل ذروته عندما صارت الساعة الحادية عشرة ولا إشارة منك... فما كل هذه القسوة التي تحملها في جعبتك يا سيدي؟ أليس من الأجدر لو أنك شحنت هاتفك في أي مكان لتتصل وتطمئنني؟ أليس من الأجدى لو أنك فعلت الصواب؟ أنا عاتبة عليك، فلا تكلمني.

- لا عليك يا سيدتي، فقد آثرت الجلوس في المقهى، ذلك المكان الذي كان يجمعنا، جلست هناك أربع ساعات متأملا طيفك وعطرك وخلجات قلبك.

جلست أربع ساعات وأنا أتحسس ذلك المكان الذي ضمك بين جنباته، فقد طاب لي المقام في ركن كنت أنت سيدته لبعض الوقت من النهار، وأنا الملهوف الحيران الذي وصل فكاد يفقد أنفاسه، وهو يسير بخطوات تلتهم المسافات التهاما، جلست هناك أستعيد بعضا من حالتي التي بعثرها الشوق وأودى بها الوجد، نعم، ربما نسيت نفسي، فلم يسعفني تفكيري، فغابت بصيرتي عن واقع الحال.

فأنت على حق يا سيدتي، وأنا تعس بصورة لا مثيل لها، إذ كيف يهنأ لي مقام وأنت قلقة بهذا القدر، وأنا بالذات سبب هذا القلق!

ألتمس منك الصفح، آسف.

- لا بأس عليك... المهم أنت بخير وهذا يزيل كل شعور بالألم.

- فهل نتفق على موعد جديد للقاء؟

- أنت طماع.

- الطمع بالأجاويد يا سيدتي.

- هههههههه

- أفهم من هذه الضحكة أنك موافقة؟

فردّت قائلة:نعم، ولكن متى؟

- عصر يوم الخميس، أي بعد يومين، فما رأيك؟

- الساعة الرابعة في "لاجوفريت".

- اتفقنا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

(6)

عادت مريم إلى غرفتها في ذلك اليوم، تحمل بيدها كيسا مليئا بأنواع العطور والكريمات، دخلت غرفتها، ووضعت الكيس بجانب طاولتها اليتيمة، ونظرت إلى وجهها في المرآة، أخذت تتأمل تفاصيله بعناية كبيرة، تتحسس خديها، وتسبل غرتها المتدلية على جبينها كشجرة يا سمين تُركت أغصانها بحرية على جدار تتبعثر أزهارها فيعشقها المكان، أخذت تبلل شفتيها بلسانها الوردي، تناولت قلم "الروج" ووضعت خطا متماشيا مع خط شفتيها الورديتين، أخرجت ما في جوف الكيس

ووضعت ما فيه فوق الطاولة، فرتبت المحتوى بحسب النوع، امتلأت الطاولة بأنواع العطور التي تتمنى معظم النساء الشيء اليسير منها، لكنها وحدها تملك كل هذا الكم من العطور، فقد تلقتها هدية من رجل لا تعرف حتى اسمه، فأخرجت كرته من جيب قميصها واستلقت على سريرها وهي تقرأ ما في الكرت بعناية وتبتسم ابتسامة المنتصر...

فها هو رجل من علية القوم، يضع نفسه تحت أمرها، برنة من هاتفها النقال، يرسل لها سيارة ليموزين سوداء لها وحدها... تجلس في المقعد الجلدي الأسود في المقعد الخلفي في السيارة، وكل مفاتيح وأزرار السيارة طوع أمرها، والسائق الهندي الشاب متأهب كجني مصباح علاء الدين السحري ينتظر إشارة أو إيماءة كي

ينفذ رغباتها... ها هي تحقق بعض أو كل أحلامها بضربة واحدة، قلّبتْ الكرت مرات عديدة، وفي نهاية المطاف قررت الاتصال بالرجل ولكنها آثرت الاتصال في ساعات المساء، فلربما يكون في النهار منشغلا بأعماله فلا يوليها اهتماما مناسبا.

(7)

وكان يوم اللقاء المنتظر بيني وبين سلمى، الخميس نهاية الأسبوع الأول من شهر أيار عام 2013، فالطقس مشمس، وحرارة الجو بدأت ترتفع، وصلت الحرارة أكثر من خمس وثلاثين درجة مئوية في دبي.

منذ الصباح توجهت للمزيِّن، قصصت شعري، وحلقت ذقني، اعتنيت بمظهري وكأنني مُقبل على حفل زفافي، أخذت إجازة من عملي، فلا يحتمل الموقف

أية مفاجآت، غسلت سيارتي ونثرت فيها أنواع الطيب، تحسبا لكل طارئ، لبست أجمل ثيابي، وقلمت أظافري، ذهبت إلى مركز ديرة للتسوق قبل الموعد بساعتين، لكنني لم اجلس في لاجوفريت إنما جلست في كوستا كوفي، أخذت أقرأ في كتاب الأخلاق عند إخوان الصفاء وخلان الوفاء، مسليا نفسي حتى يزف موعد لقائي المنتظر...

اتسم القرن الرابع الهجري بنهضة علمية، ومعرفية، وثقافية، أدت إلى نشأة حركات وجماعات فلسفية، وفي هذا الزمن الجميل الذي يعتبر مفخرة للمسلمين لما حققوه من نهضة علمية وثقافية، تبلورت أفكار جماعة إخوان الصفا فكريا ونظريا، وصاغت مجموعة كبيرة من المفاهيم الأخلاقية والوصايا التوجيهية

صياغة نظرية لدرجة أنها قاربت أن تكون فلسفة متطورة في ذلك الحين، لو لم يطغ عليها جانب الاهتمام الموسوعي بكل العلوم والمعارف، فابتعدت عن العمق الفلسفي.

فهل الأخلاق اعتقاد يسير عليه ابن البيئة الاجتماعية بعد خروجه إلى الحياة فينهل من مناهل الدنيا بعذوبتها أو مرارتها؟

أم هي طبع في الذات، تبنى في نفس الشخص قبل أن يخرج إلى الحياة؟

أنا لم أفكر كثيرا في ترجيح مفهوم على آخر فيما يخص فلسفة الأخلاق، ولكنني لم أنفك أفكر بهذه الأمور كلما كنت مع نفسي.

ما زلت أنتظر موعدي المقدس، متأهبا ومستعدا نفسيا ووجدانيا، تركت كل ما يربطني بالمدينة، بل بالعالم أجمع وجئت إليها أحبو كطفل لم يتعرف بعد على هندسة الكون، في حقيقة الأمر لا يعنيني من أمور الحياة شيئا سواها، غضبها أهم من رضاهم، حتى ولو كان الذي بيني وبين جميع البشر خراب، فإن العمار الذي بيني وبينها غاية ما أريد، فإذا قل الفضل الذي بيني وبينها فكل الذي فوق التراب تراب...

بدأت اشك بساعتي "الكاسيو" اليابانية، التي لم تقدم أو تؤخر طيلة الخمسة عشر عاما الماضية، اليوم صرت اشك بها، فهل الوقت بطيئا إلى هذه الدرجة من الكسل والخمول، أم أنّ عقارب ساعتي هرمت

وعلاها الصدأ فباتت متخلفة عن قريناتها من الساعات اليابانية والسويسرية الحديثة؟

ما زالت الساعة تبتعد عن ميدان اللقاء، وكلما اقترب الموعد ابتعدت نفسي عن استقرارها، وتبعثرت أفكاري كرذاذ عطور نساء آسيويات تجمعن لممارسة فرحتهن بمولد طفل جديد تحمله إحداهن بين يديها وتقربه بحنان لا مثيل له إلا عند الأمهات، والأخريات يضحكن بفرح صافٍ كصفاء ماء المتوسط على شواطئ جزيرة إذرة اليونانية.

كن يتسابقن إلى النظر في وجه الطفل، ويداعبن الأم بكلام لم افهم منه حرفا واحدا، فهن يتحدثن بلغة (تاجلوج) وكانت الأم تبتسم ملء شدقيها بعد كل

مقطع من الكلام، كن سعيدات، وتظهر سعادتهن جلية لكل من يجلس في المقهى، اعتبرت أنهن فأل حسن للقائي المنتظر مع سلمى، ارتحت كثيرا للفكرة، وارتفعت معنوياتي كثيرا، شكرت ربي الذي هداني للجلوس هنا في كوستا كوفي استعدادا للقائها المرتقب في لاجوفريت، أكملت فنجاني الشاي بالنعناع وطلبت قطعة حلوى صغيرة، مع فنجان من القهوة الايطالية، (اسبرسو)، وأخذت أكمل قراءتي في كتاب إخوان الصفاء، فقد استمتعت كثيرا بجلستي في هذا المكان المفعم بالفرح والسعادة والهدوء بحضور هذا الكتاب الرائع الذي يتحدث عن الأخلاق عند إخوان الصفاء...

تتشابه الحالة العامة الحالية في وطننا العربي بعصر إخوان الصفاء وأبي حيان التوحيدي، ففي ذلك العصر تناقضت الأحداث، وازدادت فيه المصائب، فاختفت فيه بوادر الأخلاق الحقيقية، وسقط العلماء والفلاسفة والأدباء في وهدة الفقر والحاجة، وعلا بعض السوقة والمتنفذين، تماما مثلما هي الحالة عليه في وطننا العربي في هذا الزمن المتردي، والذي تمر فيه الأخلاق بأزمة حقيقية، أنا لا اصدر الأحكام على كافة الناس بنفس الميزان، فالناس تختلف مشاربها، ففي عاداتهم الحسن والقبيح، وفي مناشئهم المحمود والمذموم، ولذلك فالناس مختلفون في طباعهم وفي سلوكهم اليومي، ولكن الظاهرة العامة لسلوكهم هي ظواهر سلبية بعيدة كل البعد عن الأخلاق الحسنة.

للحقيقة فإنني عندما أتطرق لأمر الأخلاق، فإنني أسير بتفكيري على طول الوطن العربي وعرضه، فسلوك المرء في المغرب العربيّ على سبيل المثال، ليس نفسه في دبي وليس نفسه في الشارقة، ولا في القدس ولا في القاهرة أو عمّان، وليس نفسه في مسقط، فسلوك شباب الدار البيضاء يكون أحيانا مخالفا لسلوك كبار السن في نفس المدينة، فظاهرة تناول المخدرات وحبوب الهلوسة والمشروبات الروحية أمر يبدو عاديّاً في هذه المدينة المغربية، لكن سلوكا كهذا غير عادي ومستهجن جدا في مدينة القدس على سبيل المثال، ومرفوض تماما، ولا تجد هكذا سلوك في مدينة مسقط العمانية، بل إنك تجد فرقا شاسعا بين سلوك الناس اليومي في مسقط وبين سلوك الناس في

ضواحي القدس، ففي هذه المدينة الواقعة تحت الاحتلال الصهيوني الذي يحاول تدمير البنية الأخلاقية لدى الشباب، وبرغم الضوابط الأسرية التي تحمي الفرد من كثير من السلبيات الأخلاقية، إلا أن ظاهرة الفساد الأخلاقي في ضواحي مدينة القدس تبدو جلية للعيان، لكن المزيج المتداخل للحياة اليومية في مدينة دبي يجعلنا نبرر تصرفات بعض الشباب بأنها مكتسبة من الشعوب المختلفة التي تُكوِّن التشكيل الحقيقي للحياة اليومية في هذه المدينة الفريدة في تكوين نسيجها الإنساني... القراءة في هذا الكتاب والتطرق إلى موضوع الأخلاق والسلوك الاجتماعي العام في الحياة العامة، يثير الخيال، ويبعث الدافعية الذاتية لآلية التعامل البشري السليمة، بخاصة في

مجتمع تعيش فيه ثقافات متناقضة، في عقائده، وممارساته، وأحلامه، وخلفياته، في طعامه، وشرابه، وآدابه ولغاته، ومبادئه، وألوانه، وطموحاته، فما يقبل به الهندي لا يقبله المصري، وما يقبله اللبناني لا يرضى به الفلبيني، وما يقبله الروسي لا يقبل به الخليجي، فما الذي جمع كل هذه التناقضات في مساحة جغرافية صغيرة نسبيا؟ وما الذي آلف بين هذه المتناقضات؟ فلا اللغة واحدة ولا التاريخ واحد ولا الدين واحد... وهذه العناصر الثلاثة الأكثر أهمية كمقومات أساسية لأي مجتمع إنساني على هذه الأرض؛ إذا فما الذي يجمع كل المتناقضات تحت سقف واحد؟

إنها مجرد تساؤلات لا أريد عليها إجابة، لكن شيء ما برأسي، يحاول التدخل بالحديث والمشاركة بالرأي، يقول

لي: "دعني أتدخل بالأمر وأجيب **عن** سؤالك". إن ما يجمع الناس في هذا البلد هو المال، فلولا وجود المال لما جاء إلى هذه البلاد هذا التنوع من الناس، الحريصين على حماية وجودهم باحترام قوانين البلاد.

لكن المال الوفير لم يجمع العرب تحت عباءة واحدة، فليس دائما يكون المال سببا في اتحاد الناس تحت سقف واحد، فلماذا لم تتحد البلاد العربية ومن شأن اتحادها أن يوفر الرفاهية لكل أبناء العربية؟

من المؤكد أن لدى العرب المال الوفير، ولكن تنقصهم القوة اللازمة لحماية هذا المال.

إذن، فالقوة هي الأهم.

القوة وحدها لا توفر الوحدة، القوة بحاجة إلى سياسة، وتخطيط، وانتماء، وكل ذلك لا يكون إذا لم يتوفر الإيمان.

كأنني غبت عن الواقع الذي أعيشه في هذه اللحظات، أنا سرحت بأفكاري بكل اتجاه، فالانتظار وفر أرضية خصبة للثرثرة الذاتية، الانتظار وفر الملل والوقت والفراغ، فقد قال الشاعر:

"إن الشباب والفراغ والجِدَة=مفسدة للمرء أي مفسدة"...

إلا أنني تعودت الهاء نفسي بالقراءة والتفكير كلما جلست في مقهى.

قبل موعد اللقاء بخمس عشرة دقيقة، جمعت أشيائي المتناثرة، دخلت "التواليت" لترتيب هندامي وإلقاء نظرة أخيرة على هيأتي في المرآة، ثم ذهبت إلى مقهى

لاجوفريت غير البعيد، دقيقتين فقط وكنت جالسا على طاولة في نهاية الصالة، اخترتُ مقعدي بعناية، ولأفرض عليها الجلوس في مكان لا يشتت انتباهها عني، كان كرسي في مواجهة مدخل المقهى، والكرسي المقابل هو المرشح لجلوسها عليه، مرت الدقائق العشر ببطء لم أعهده من قبل، وكلما جاءت النادلة تسألني عن رغبتي في اختيار مشروب ما، اسألها بدوري عن الساعة، شعرت بأن الوقت لا يتزحزح...

لم تمر أكثر من دقيقتين إلا وامرأة مكتملة الجمال تقف على جانب مدخل المقهى تنظر إلى الداخل بطريقة غير ملفتة، إنها تقف بشموخ يصحبه دلال أرستقراطي، تمسك بكف يدها اليسرى حقيبة يد

سوداء صغيرة وتضمها بيدها اليمنى فوق خصرها بقليل...إنها هي، حبيبتي، سلمى أجمل امرأة بالكون، رفعت يدي ملوحاً دون أن الفت الانتباه حفاظا على بريستيجها الارستقراطي، أنزلت يدي فورا حال رؤيتها لي، سارت نحوي بسلاسة كمن يسير على الماء، خفيفة، رشيقة، متناسقة القوام.

وقفت لاستقبالها، مددتُ يدي، فمدتْ يدها الصغيرة، لامست أناملها فكانت طرية مكرمة ناعمة متلألئة كالرخام الإيطالي، سحبتُ الكرسي فجلست كالأميرات... مرت الدقائق الأولى صامتة صمت من يدخل إلى امتحان مصيري، أو إلى مقابلة لوظيفة مهمة تتحقق بنيلها كل الأحلام، صمت مطبق، لدرجة أننا لم نتنبه للنادلة الواقفة وفي يدها قائمة

المقهى لمساعدتنا في اختيار طلباتنا، دون أن أشعر قلت للنادلة من فضلك احضري اثنين من الليمون بالنعناع، ابتسمت لاختياري مرتاحة، فبثت ابتسامتها الجرأة في نفسي، فقلت لها أهلا وسهلا بك سيدتي، كيف حالك؟

- الحمد للّه، بخير. وأنت؟

-بخير، الحمد للّه، أنا الآن بخير.

خرجت من رئتي تنهيدة كادت تطوح بي لولا أنها قالت: " أقلقتني عليك ذلك اليوم".

لم أقصد ذلك، ولكنني عندما جئت ولم أجدك هنا، جلست في ذلك الركن، ولم أدرِ بنفسي إلا وقد صارت

العاشرة، خرجت أجرُ ذيول خيبتي وحزني، كانت اللحظات تلك من أتعس أوقات حياتي، فكيف لي أن أتأخر عنك وأنت حلم حياتي _ تداركتُ كلماتي عندما علا وجنتاها احمرار وحياء_ ارتبكت وفقدت السيطرة على أقوالي، أمسكت بكأس الليمون وشربت قليلا، ثم آليت الصمت.

مدت يدها إلى كأس الليمون وقرّبت المصاصة إلى شفتيها وأعادتها مكانها، وبقيت تلامس الكأس بأطراف بنانها، وساد الصمت مرة أخرى...

في داخلي نار تتأجج، حتى لتكاد تنفجر فتُغرق الدنيا بحممها، ما الذي عقد لساني عن الإفصاح بحبي لها، ما الذي أنساني كل الكلام الذي عزمت على قوله قبل

اللقاء بها؟ ما الذي أذهب بعزيمتي وإرادتي وبصيرتي فجعلني كتلة من المادة أمامها. كيان من عالم آخر، ربما من الفضاء الخارجي، يختلف عن بني البشر، هي دافئة وحرارتها تهفهف على نفسي، ورائحة عطرها تطغى على رائحة النساء كلهنّ، وحضورها يغني عن حضور النساء جميعهن، فكان ملفتا لكل رواد المركز التجاري وكأنهم في حضرة أميرة من الأميرات، أو ملكة تتربع على عرش السماء، لو رآها نبلاء وشيوخ روما لجعلوا منها آلهة للجمال لتحل محل أفروديت، أنا بين يدي آلهة الجمال، إنها حبيبتي وأنا لا أقدر على الإفصاح لها بحبي...

تداركت بذكائها الوقّاد ما بداخلي، فقالت: "ما بك يا أحمد؟ ألستَ سعيدا بلقائي؟"

- لستُ سعيدا؟ أنا...؟ إنه من شدة سعادتي ارتبط لساني، ونسيت كل كلامي، وتبعثرت كل أفكاري، وزاد تسارع نبضي فلم أعد أسيطر على أنفاسي... أأنا لست سعيدا...؟ إذن، فمن السعيد على وجه البسيطة؟!

تلون وجهها بلون وردي وهي تستمع إلى انفعالي، وقالت: "سلامة قلبك" ...

كانت ذكية جدا بسؤالها الاستنكاري، ما زاد إعجابي بها وتقديري ليس فقط لجمالها إنما لحدة ذكائها وصواب تفكيرها، شعرت بسعادة حقيقية، وراحة واطمئنان وقناعة، فبين يدي هذه المرأة أستطيع إيداع قلبي غير قلق عليه...

قلت لها: حدثيني عن نفسك...

_ ماذا تريد أن تعرف؟

- القدر الذي تريدينه، عملك، أسرتك، أصدقاءك...

_ أنا لبنانية، كنت متزوجة من رجل أردني، انفصلنا بعد زواج دام سبع عشرة سنة، قبل ثلاث سنوات، بسبب إدمانه على لعب القمار، عندي بنت واحدة سأعرفك عليها، فهي تعيش هنا في دبي، وتعمل في ذلك المتجر _أشارت نحو باريس جالري القريب للمقهى_ وأعمل مصففة للشعر في "أبو ظبي" لا صديقات بمعنى صديقات عندي، إنما زميلاتي بالعمل... حياتي مقتصرة على العمل والقلق على مصير ابنتي الوحيدة التي أصبحت لها الأم والأب... أنا تزوجت صغيرة جدا لم

يتجاوز عمري الخمسة عشر، فقد تزوجت زواجا تقليديا ولا أذكر كيف تم الأمر، فقد كنت صغيرة جدا آنذاك، وكان والد زوجي صديقا لأبي تعرفا على بعضهما من خلال تجارة الفاكهة، كانا صديقين مقربين لبعضهما البعض كثيرا، أنا من ضيعة صغيرة شمال مدينة زحلة، تبعد عنها قرابة ثلاثة عشر كيلومترات، اسمها بيت شما، كان الحاج محمود ينام في بيتنا وكنت أحبه كثيرا فقد كان يحضر لي الكثير من الهدايا والألعاب، عندما كنت طفلة صغيرة أجلس على ركبته، ويقول لأبي: سلمى ستكون زوجة ابني وليد إن شاء اللّه، فيضحك أبي قائلا: "خلاص يا أبا وليد هي لك"... لم أكد أعي الدنيا حتى وجدتني عروسا في بيت عمي الحاج أبو وليد، كنت سعيدة جدا في بادئ الأمر وكان

عمي يدللني ويحبني أكثر مما يحب ابنه، ودائما يسأله عني ويوصيه بي خيرا، بعد عام واحد من زواجي خلّفت ابنة مثل القمر في جمالها، أسماها عمي مريم على اسم حماتي التي كان يحبها كثيرا، عشت مع زوجي في بيت عمي عيشة سعادة واحترام ومحبة ولكن مع الأسف لم تستمر الحياة على هذا المنوال، إذ جاء هادم اللذات ليخطف عمي فجأة من بيننا في حادث مروع على الطريق بين بيروت عمان، فقدنا هذا الرجل الذي لا مثيل له في الطيبة والحنان والكرم، شعرت بأنني تيتمت حقا بفقده، بكيت عليه بكاءً مرّاً... سكتت قليلا ثم أجهشت في البكاء، فناولتها منديلا ورقيا وقدمت لها كأس الليمون لتهدأ... صارت تتكلم ودموعها تسيل على خدها الأسيل... تتكلم ولا تريد أن

تقف عن الكلام، تنثال الكلمات من شفتيها كنزيف نتج عن جرح غائر في شريان أورطي، أدركت حاجتها للكلام، فقد يخفف عنها كل هذا الثقل الذي تحمله في قلبها من الحزن والوجع... أضافت وهي لا تزال تدمع بغزارة، نعم، تيتمت، فبعد وفاة عمي له الرحمة، تبدلت الحياة، فصارت الجنة جحيما ، والبرد ناراً ، والسعادة بؤساً ، والمستقبل غدا أسود كالسخام، صار زوجي يغيب عن البيت ساعات الليل بطولها، فيأتي في الصباح بهيأة تثير الشفقة والرثاء، ظننته على علاقة بامرأة أخرى، لم يضايقني ذلك كثيرا، فكل الرجال تقريبا يمرون بنزوات نسائية ثم يعودون إلى بيوتهم نادمين، لكن وليدا ليس من هذا النوع من الرجال، فلو كان على علاقة بامرأة أخرى لما كان يغيب طوال الليل

ويعود مع الفجر بوجه أسود رائحة الدخان تفوح من ملابسه علما بأنه لا يدخن، ولا يشرب الكحول، ولا يتعاطى أي نوع من المخدرات، فما الذي يؤخره وما الذي يفعله في حياته؟! احترت في أمره... أخذت الأفكار تتصارع في رأسي، وأنا أرقب مريم وهي نائمة في سريرها كالملاك، حزنت وانفطر قلبي عليها وامتلأ قلبي حسرة... ففي أحد الصباحات قرع جرس الباب، وكان خلف الباب شرطي يحمل بيده حقيبة صغيرة سوداء وفي اليد الأخرى رسالة دعوة إلى السجن لزوجي بقضية شيك راجع بدون رصيد وقيمته خمسة آلاف دينار، كدت أقع من طولي لولا أني تماسكت باللحظة الأخيرة، استلمت رسالة الدعوى من الشرطي ووضعتها على طاولة السفرة في صالة البيت

منتظرا وليداً حتى يستيقظ من نومه فقد حضر بعد الفجر...

بعد ساعتين استيقظ وليد وكان ما يزال متعبا، جهزت له فنجانا من القهوة، وقدمته له دون أن انبس ببنت شفة، تناولها من يدي ورشف رشفة ثم أخرى، ونظر إلى رسالة الدعوى، فتغير لونه، وأصابته عصبية لم أعهد كمثلها معه، أخذ يشتم ويسب ويلعن الدنيا وما فيها، وراح يقف ويقعد ويقعد ويقف ويسير بالبيت على طوله وعرضه، كمن أصابته هستيريا، لم أحاول تهدئته، تركته حتى يهدأ وحده ... وضع الدعوى في جيب قميصه، ثم سألني إذا كان معي بعض المال، فناولته نصف المال الذي عندي وكان قرابة مائتي دينار، أخذها وخرج مسرعا، ليعود بعد العصر وقد ساءت

حالته، ثم طلب مني مالا فقدمت له مئة دينار... لكنه أخذ مائتي دينار في الصباح أيعقل بأنه صرفها كلّها؟!

لم أشأ أن أتدخل بسؤاله حرصا على مشاعره. ولكن، لماذا يرجع شيك من شيكاته بحجة عدم كفاية الرصيد، فكيف ذلك وأنا أعرف أن رصيدنا في البنك يتجاوز هذا المبلغ بكثير، بل إنه مبلغ قليل قياسا برصيدنا البنكي، ضربت بيدي على رأسي إذ تخيلت بأن حسابنا في البنك قد نفد، فهل خسرنا تجارة ما؟ وإذا خسرنا في تجارتنا فهذا أمر محتمل الحدوث ولكننا لم نعتد المتاجرة بكل ما لدينا من مال مرة واحدة. إذاً، في الأمر سر، لم يكن مني إلا أن توجهت إلى مخفر جبل عمان، وسألت الضابط عن الدعوى الموجهة ضد وليد محمود عبد السلام، ففتح الضابط الملفات ليجد

أصل الدعوة فكانت باسم شخص لا علاقة له بتجارتنا من قريب أو من بعيد، طلبت من الضابط صورة عن الدعوى، وذهبت إلى محامٍ من معارف عمي، وقدمت الدعوى له مستفسرة، فوعدني بالتقصي والسؤال، قائلا لي بأن من شان هذه الدعوى التسبب باعتقال وليد لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات إذا لم يتم سداد قيمة الشيك خلال أسبوع من تاريخ الدعوى، فقدمت للمحامي أساوري الذهبية، لتغطية قيمة الشيك، وعدت إلى بيتي بانتظار إجابة من المحامي... بعد يومين اثنين، اتصل بي المحامي ليقول لي خبرا هدني سماعه، فقد قال لي بالحرف الواحد: " يا سيدتي زوجك يلعب القمار في شقة خاصة في جبل عمان، وقد خسر جميع رصيده البنكي، وثمة شيكات كتبها على نفسه

تفوق ما جاء بالدعوى"... كانت الصدمة شديدة علي، جلست في مكاني دون حراك، زوجي مدمن على القمار، خسر كل شيء، حضنت مريم، وأخذت أبكي بحرقة...

قلت له لا عليك، انتبه لنفسك، ولا تهتم، المال يأتي ويذهب المهم أن تتعلّم مما حدث، قال: " سأرجع كل خسارتي أريد بعض المال كي أعيد ما خسرت، بحث عن كل قرش في البيت تركنا دون مصروف، خسر كل شيء، باع حجة البيت والمحلات التجارية، صارت الناس تتصدق علينا، في نهاية الأمر طلبت الانفصال عنه، خوفا على حياتنا معه، وحماية لابنتنا الوحيدة التي صار عمرها سبع عشرة سنة، وجئت مع ابنتي إلى "أبو ظبي" لأعمل مصففة للشعر مع قريبة لي من لبنان، فدربتني على هذا العمل لدرجة أنني اكتسبت ثقة

زبونات الصالون، وها أنا الآن وقد رمت بعضا من حياتي أجلس معك، فأنا لم أعتد الجلوس مع أحد من قبل...

فقلت: أنا أيضا لم اعتد الجلوس مع أحد هنا في هذه المدينة، رفيقي الوحيد الكتاب، أقضي معظم أوقاتي بالعمل، فانا أعمل أحيانا كثيرة خارج نطاق المكتب، وأسافر كثيرا، بحكم عملي في العقارات، أنا أبيع وأشتري وأُخمن العقارات...

أنا من مواليد القدس، غادرتها بعد أن أكملت تعليمي الثانوي في مدارسها، ثم أكملت دراسة الهندسة المعمارية في بريطانيا، فحصلت على درجة الماجستير، تزوجت من ابنة عمي ولم أوفّق بزواجي فلم يدم طويلا، ومنذ ذلك الحين أعيش وحيدا مقتنعا بحريتي

الشخصية سعيدا بها، لا مسؤولية عندي سوى الجزء الذي اقتطعه شهريا من دخلي المالي وأرسله إلى والدي في القدس، عملي كل عالمي، أحبه وأصرف فيه معظم وقتي، لا يوجد عندي وقت فراغ تقريبا، خارج نطاق العمل أذهب إلى شاطئ البحر بصحبة كتاب، أحيانا أكون مع أحدهم هنا أو هناك ولكن الأمر ليس جديا، بصراحة؛ أنا أشعر بغربة عن الأمكنة في هذه المدينة بعد كل هذه السنوات التي عشتها فيها، فلا أعرف إلا مركز تسوق واحد وخياطاً واحداً ووكالة سفر واحدة وجزاراً واحداً ، ومغسلة للملابس واحدة، ومكتبة لبيع الكتب واحدة، هذه شخصيتي وهكذا أشعر بالاستقرار، أحب قضاء كثير من وقتي في البيت، ولا أتبادل الزيارات مع أحد إلا ما ندر، حياتي مستقرة على

هذا الشكل وأنا سعيد بها إلى حد ما، إلى أن تقابلنا أنا وأنت؛ كان لقاؤنا الأول بمثابة ثورة على منهجي الحياتي، فقد تفتَّحتْ الأفاق أمامي مرة واحدة، ووجدتني أفتح ملفاتي، وأبدل جذريا خططي الماضية، ذهبت إلى السوق فاشتريت طقما كاملا للبوساتي، غيرت ألوانها وموديلاتها، كما غيرت مظهري العام، ليوافق حالتي الوجدانية، فما الذي دفعني إلى هذا التغيير المفاجئ؟

_ أنا سعيدة لهذا التغيير، فالإنسان لا يستطيع العيش على وتيرة واحدة طوال حياته... فهل وجودي سبب هذا التغيير؟

اعتدت على أسئلتها الاستنكارية هذه، فهي تسأل وتعرف الإجابة، إنها من النوع الذي يحب سماع الإطراء

بشكل مباشر، باتت أسئلتها الاستنكارية تروق لي، فهي تقر ما في نفسها من مشاعر تجاهي، فهذا الأسلوب صار محببا لي، وهو الذي شجعني، ورفع من معنوياتي تجاه علاقتي بها، هذه العلاقة التي دعوت اللّه في سري أن تثمر عن اتحاد روحي ووجداني بيني وبينها، فقد أحبتها كل خلية في بدني وفي عقلي، هي المرأة التي انسجمتْ معي كيميائياً وعاطفياً، وما أتمناه أن تكون مشاعرها موافقة لإحساسي بها...

وجودك يا سيدتي قلب حياتي رأسا على عقب...

_ لا تبالغ كثيراً...

- أنا لا أبالغ أبدا، بل إنني عاجز عن وصف ما آلت إليه حياتي بعد لقائي بك...

_ أنت لا تعرفني حتى...!

- أنا أعرفك بمقدارٍ كافٍ...

في هذه اللحظة بالذات رن هاتفها النقال، أخرجته من حقيبة يدها السوداء وتحدثت قائلة: " نحن نجلس في مقهى لاجوفريت تعالي بانتظارك" ثم أغلقت الهاتف وأرجعته إلى حقيبتها...

أخذت تنظر تجاه مدخل المقهى، ثم رفعت يدها تشير إلى مكاننا...

القادمة فتاة في مقتبل العمر، جميلة جدا، تلفت بجمالها الأنظار، وقفتُ لها عندما وصلت، استعدادا

لإحضار كرسي لها، قدمتني قائلة: " الأستاذ أحمد، فقد حدثتك عنه...ابنتي مريم..."

جلس ثلاثتنا صامتين لبرهة من الزمن، ثم سألتهما عن رغبتهما في طعام أو شراب، فلم تجيبا بشكل صريح، فكان علي أن أطلب لهما شيئا يأكلانه، فطلبت طبق "فهيتا" وطبق قريدس، وطبقاً من اللحم المشوي مع صلصة الفطر... أحضرت النادلة طبق الفهيتا بطقوس خاصة، في مقلاة سوداء مستطيلة الشكل والبخار يتصاعد منها بشكل ملفت، انتظرت النادلة البخار حتى يهدأ قليلا ثم وضعت المقلاة بما فيها فوق الطاولة أمام مريم، تبعتها نادلة أخرى تحمل صينية مستديرة عليها سلة من القش فيها القريديس والبطاطا المقرمشة المقلية، ووضعتها أمام سلمى، ثم

وضعت أمامي صحنا أبيض بلون الحليب، فيه قطعة كبيرة من لحم البقر المشوي وبجانبها قطع خضار من الجزر والقرنبيط المسلوق، ووعاءً من الستانلس ستيل فيه صلصة الفطر أيضا، ابتسمت النادلة بعد أن شكرناها وسألتنا عن رغبتنا بتناول أي نوع من الشراب، فقالت لها مريم أحضري لنا بيبسي كولا، لم أعلق على طلبها للبيبسي بالرغم من أنني لم اشربه منذ زمن طويل...

أخذت أتذوق الطعام ببطء شديد وأنا أرقب الاثنتين من طرف عين، كانت سلمى تأكل على استحياء، بينما مريم تتناول طعامها وكأنها في سباق، لم تأبه بنا، ولم تلتفت لشيء غير طبق الفهيتا الذي تبدو بأنها تحبه

ولها تجربة كبيرة معه، خاصة وأنها تعمل في المتجر القريب من هذا المقهى...

ألا تحبين طعامك يا سيدتي؟ سألتُ سلمى.

_ نعم، أحبه، فهو شهي، ولكنني لست جائعة.

- إنه وقت الغداء وأنت لم تتناولي أي طعام بالتأكيد...

_ لا رغبة لي بطعام أو شراب، صدقني...

- براحتك، أرجو أن تخبريني إذا رغبت بنوع آخر...

_ لا تقلق، أنا بخير، اطمئن...

أجهزت مريم على طبق الفهيتا إجهازا تاما، وتناولت زجاجة البيبسي كولا ترشف المشروب بتلذذ واضح، لكنها لا تكف عن استراق النظر من تحت غرتها المتروكة على جبينها العاجي، نظرتها تُدخل الريبة إلى نفسي، تفاديت النظر إليها، لكنها لم تكف عن تلك النظرات المريبة، فماذا تريد تلك الفتاة؟ ماذا يدور في خلدها؟ أهي نظرة تفحص إلى هذا الرجل الذي سيشاركها أمها؟ أم هي نظرة شك؟ لم أعط بالا لتلك الأفكار، ولم أترك للوساوس مكانا في نفسي، فأنا أحب سلمى كثيرا، وابنتها بمثابة ابنتي، طمأنت مريم بأنني أحب والدتها وبأنها لن تجد أبا حنونا عليها مثلي، لكنني لا أعرف حقيقة مشاعر سلمى تجاهي بعد.

نعم، عندي إحساس بأن سلمى معجبة بي وربما تبادلني الحب، لكنني غير متأكد من مشاعرها... أأعترف لها الآن بحبي؟ وليحدث ما يحدث... أم أتروى وأصبر؟ لكنني أخاف أن يمر الوقت وأن تحدث أية مفاجأة ليست بالحسبان... أخذت الأفكار تتضارب في رأسي ولم أتنبه بأنهما تهيئان نفسيهما للرحيل...

وقفت سلمى، ووقفت مريم...

نستأذنك بالذهاب، فقد تأخرنا...

_ ألا تستطيعان البقاء لمدة أطول، فقد مر الوقت بسرعة كبيرة، ثمة أمور كثيرة أردت التحدث بها...

لا عليك فلنا لقاء آخر إن شاء اللّه...

ـ متى؟

- لا أعرف، لنبق على تواصلنا... نتحدث بالهاتف...

ـ كما تشائين يا سيدتي... سعدت بلقائك آنسة مريم...

- وأنا أكثر...

تصافح ثلاثتنا بعد أن أوصلتهما لسيارتهما في المرآب، وودعتهما على أمل اللقاء مرة ثانية...

وقفت أرقبهما حتى غاصت سيارتهما في متاهات المرآب... ثم سرت كمن يحمله الهواء على أجنحة الحلم، تجولت دون وعي كالهائم بين السيارت، فقد عشقت المرآب وألوان السيارات ولم أشعر بحرارة الجو داخل المرآب،

أخذت أبحث عن سيارتي فقد نسيت أين أركنتها، لم أضق ذرعا من البحث، ولم يصبني الضجر أو الخيبة...

(8)

- إذا، ما رأيك به؟

_ إنه لطيف، ووسيم أيضاً.

أعجبتها إجابة مريم، وكأنها كانت تنتظرها من ابنتها الوحيدة، أرادت أن تجس نبضها، لتمهد الطريق لحبها المعتمل في صدرها منذ رأت أحمد ذلك الصباح؛ فهو رجل ليس كرجال هذا الزمن، إنه وسيم وأنيق، وحنون لأبعد حدود، ومثقف، وغير مرتبط، وهادئ، ورزين، ابن ناس طيبين، فماذا تريد المرأة غير هذه الصفات... وها

هي ابنتي التي كنت قلقا على موقفها، تُعجب به وتتحدث عنه بحب واحترام...

ظننته سيبوح لي بمشاعره، لكنه آثر السكوت، ولا ألومه على ذلك، فالبوح يحتاج إلى هدوء، وسكينة، وهذان الأمران لم يتوفرا في "لاجوفريت". وربما وجود مريم أيضا منعه من البوح، إنه بالفعل رجل خلوق، أنا أحبه، نعم أحبه، سأقولها له في لقائنا القادم، ولن أتراجع.

أنا ومريم ننام في غرفة واحدة، وزميلتها المغربية حفصة في الغرفة الأخرى، الشقة تابعة للشركة التي تعمل فيها، آتي لزيارتها بين الفينة والأخرى، استلقيت على السري الوحيد في الغرفة، بينما تنام مريم على فرشة صغيرة بجانب السرير، وفي الغرفة خزانة واحدة بدفتين

من خشب البلوط، وطاولة خشبية صغيرة مربعة الشكل بجانب الخزانة وضعت عليها أشياءها، من مكياج وعطور، أمامها كرسي خشبي، وعلى الحائط مرآة صغيرة لا يتجاوز ارتفاعها النصف متر، وعرضها كذلك، وعلى الحائط القريب من التواليت عُلق جهاز تلفاز صغير مفتوح باستمرار على محطة روتانا موسيقا، كما توجد صوفا صغيرة تتسع لشخصين لونها خمري يتناسب مع أثاث الغرفة.

عندما فتحت مريم الخزانة لإخراج وسادة إضافية لاحظت أشياء كثيرة لم أحدد ماهيتها في داخل الخزانة... تُرى ما تلك الأشياء؟

في الصباح كان سؤالي الأول لمريم عن تلك الأشياء التي في خزانتها، فلم تعطني إجابة، بل تلعثمت بكلام لم أفهمه، وعندما أعدت عليها السؤال، قالت بأنها أشياء تخص الشركة، وهي عبارة عن زجاجات من العطور المختلفة، في البداية صدقتها على مضض، لعلمي بأنها تعمل في شركة مشهورة ببيع العطور، لكن الأمر لم ينسلخ عن تفكيري.

لم أشأ أن أُعكر صفو فرحتي بأحمد، وبلقائه الجميل يوم أمس، ولكن الحظ العاثر ملازم لي أينما وجهت أمري، فكيف لشركة أن تضع هذا الكم من الزجاجات العطرية غالية الثمن مع إحدى العاملات بها؟

أول ما تبادر إلى ذهني أنها تسرق العطور من عملها، وإلا فمن أين لها كل تلك الزجاجات؟ سألتها مرة ثانية، وثالثة وخامسة، وفي كل مرة تجيبني بنفس الإجابة، وفي كل مرة تزداد شكوكي بها، إلى أن قررت الاستفسار من زميلتها حفصة، بعد أن تغادر مريم إلى عملها، وأبقى أنا وحفصة في الشقة.

كانت الحادية عشرة صباحا عندما استيقظت حفصة من نومها، قلت لها: "ما رأيك أن نتناول الشاي معاً؟"

سرت حفصة للفكرة ورحبت بحرارة.

حفصة فتاة مغربية، سمراء، في الأربعين من عمرها، نحيفة القوام، وصغيرة الحجم، لا يزيد وزنها عن الخمسين كيلوجراما، لكنها طيبة بشكل جميل،

وروحها مرحة كالفراشة البيضاء التي تداعب زجاج النافذة، وهي تحاول معانقة أشعة الشمس قبل الظهيرة وقبل أن تشتعل الأرض بالحرارة الملتهبة عندما تسقط مباشرة عليها، فلخفة الدم نصيب من ألق الشمس وعفتها.

جلست مع الجميلة حفصة، وقد أنساني حسنها ولطافتها وخفة ظلها ما خططت له في البداية، وسعدت بطريقة استثنائية مع هذه الفتاة المغربية، التي قطعت ستة آلاف ميل لتعمل هنا في دبي، وتعيل أسرتها في مدينة أغادير على المحيط الأطلسي، فكم كانت سعيدة وهي تحدثني عن مدينتها الجميلة التي تتربع كالملكة على سواحل الأطلسي، فيأتي للتمتع بشمسها وبحرها السياح من مختلف بقاع العالم.

تمهلت كثيرا قبل الاستفسار عن عطور خزانة مريم، ليتني لا اسألها لنبق صديقتين أنا وهي فقد راقت لي، وأحببتها صديقة مرحة صدوقة...سألتها بصيغة الحديث العادي وبجملة لا سؤال فيها، قلت لها، هل تحبين عملك في هذه الشركة يا حفصة؟

ـ نعم، أحب عملي، فأنا أعمل في هذه الشركة منذ سبع سنين، والحمد للّه سعيدة بعملي... يوفرون لنا السكن والراتب المضمون... وماذا نريد أحسن من ذلك؟

- شقّتكم جميلة وقريبة من العمل، فهل هذه الشقة ملك للشركة أم مستأجرة؟

ـ أظنها ملك للشركة.

- وهل تستعمل الشقة أو جزءٌ منها كمخزن لبضاعتها بحكم قربها من الشركة...؟

ظهرت علامات الاستغراب على وجه حفصة، وقالت: " ثمة مخازن كبيرة للشركة في نفس المجمع، في ديرة سنتر، وفيه أمين مستودع وعاملون يحضرون ما يلزم من بضائع إلى المتجر أولاً بأول، ولا يُسمح بإخراج قلم كحلة من المخزن أو من المتجر إلا بوصل خاص...

كان رد حفصة على السؤال كضربة تحت الحزام لسلمى، تجعل أعتى الملاكمين يقع أرضا في حالة خطرة قد تصيبه بعاهة مستديمة.

لم تتبدل في كلامها مع حفصة، ولم تغير نبرتها، ابتلعت المعلومة كمن يبتلع سكينا ذات حدين، كانت

تنزف من الداخل، ولكنها احتفظت بابتسامتها المشرقة أمام الصبية، إنها امرأة صبورة، طيبة، عفيفة.

9

ما أبهى سلمى وما أجمل صوتها! إنها أكثر عذوبة من موسيقا الأربعة فصول، واشد بريقا من الذهب، لم تكن الظروف مهيأة للبوح بما يعتمل في صدري من هيام نحو هذه المرأة الرائعة، فيوما أو يومين أو حتى أسبوعا أو أسبوعين لن يؤثرا على حالتي فالصبر الصبر، ولن تأكل الأيام القادمة بعضا من قلبي ولا ذكرياتي الجميلة، كان لقائي بها أكثر من رائع، أشعرتني بطريقة ما بأنني جزء من تراثها الاجتماعي، ومن حياتها دون أن تتفوه بكلمة عن مدى هذه

العلاقة، كم وددت الإمساك بيدها الصغيرة لأطبع عليها قبلة تلهب جسدها الصغير الغض، تمنيت احتضانها، وضمها إلى صدري بعد الذي عانته في حياتها الماضية، كانت تتحدث بحرارة وألم، وهي لم تدر كم كنت أتوجع من أجلها، رأيت في عينيها شيئا من الاستقرار، وشيئا من الحب، وشيئا كثيراً من الذكاء والفطنة، سألتُ نفسي: ماذا يمكنك أن تمنحها وفي يدها كل شيء، فهل أنا الرجل الوحيد الذي من الممكن أن ترميه هذه المرأة بالزهور؟

ربما!

لكنني على استعداد أن أذبح كل قرابيني في معبدها، وأن أقدمها لها كي تتوسط لي لدى قلبها البلوري

المتألق كالثريا، ليلة الأمس حلمت أنني تبادلت معها القبل، راقبت القمر فرأيته يسقط من بين النجوم ويقع في حِجرها، مضى نصف الليل وأنا ما زلت وحدي في فراشي البارد، أيتها السماء، أنتِ تخدعين المحبين ببهائك وبألوانك الزاهية عندما تودعينها في ذلك الأفق البعيد، خلف البحر، لطالما تمنيت أن تكون حياتي مثل النوارس لأسافر وراء الأفق، كنت أحسبه يلتقي كل مساء مع حوريات البحر، عند الجزر البعيدة النائية، ويعود في الصباح بألوانه مع الشمس، وقفت كل يوم على حافة البحر قرب الرمال الذهبية، أنتظر... كنت أنتظر بفارغ الصبر، ولم أمل الانتظار، وها أنا أنتظر لقاءً آخر...

أرسلت لها رسالة نصية عبر هاتفي النقال قلت فيها:

" أسألك يا سيدتي أن تقابليني وجها لوجه، كي أرى بريق عينيك، فثمة الكثير من الكلام العالق في منتصف المسافة بين السماء ونهر الحنين".

انتظرت ردها... فلم يطل انتظاري، إذ قالت برسالتها:

" فلتذهب الريح والأحزان، ولتحمل لنا السماء خير ما عندها، ليكن لقاؤنا أنا وأنت في يوم الجمعة القادم في العبرة، نصعد قاربا صغيرا يبحر بنا فوق مياه البحر فتكون طيور النورس رفيقة لمسائنا"...

قرأت الرسالة عشرات المرات، حفظتها عن ظهر قلب، فماذا تريد أن تقول بهذه الكلمات المختارة بعناية فائقة، خلتها قصيدة شعر كتبت بيد شاعر من

شعراء الأساطير، هي تعترف بما يختلج في قلبها من حب دون أن تذكره مباشرة، كم هي ذكية وشفافة.

فها هي سلمى تفعل المثل، فلتذهب كل الأحزان مع الرياح، ولتأت السماء بما هو خير من عندها... نعم، لنسع إلى السعادة، فالسعادة موجودة ضمنيا في حياتنا فما علينا إلا استكشافها.

(10)

امتزج الخوف مع الغضب في نفس سلمى، بعد أن تبين لها مقدار الكذب الذي تمارسه مريم أمامها، بما يخص زجاجات العطر الموجودة في خزانتها... أيعقل أن ابنتي لصة؟ تسرق العطور من المتجر الذي تعتاش منه؟ أيعقل أنها تفعل ذلك؟ فانا لم أدع شيئا ترغب به إلا ووفرته لها، فلا شيء ينقصها، لا المال ولا الجمال، فلماذا تفعل ذلك؟ ألا تدرك عواقب فعلتها الشنيعة هذه؟

مر بقية ذلك اليوم طويلا على سلمى، وهي تنتظر عودة مريم من عملها الساعة الخامسة، أخذت الأفكار تطوِّح بها في كل اتجاه، تبعثر تركيزها ولم تعد تعي شيئا حولها، فما أصعب أن يكتشف المرء خللا ما في تربية ونشأة فلذات كبده، لم تتناول الطعام أو الشراب، حاولت أن تتماسك دون جدوى، استسلمت للبكاء والندب، فندبت حظها العاثر، فقد تخلت عن الدنيا بما فيها من أجل مريم، وها هي مريم تتساقط كأوراق الشجر في الخريف.

أنا لا أطلب شيئا من هذه الحياة، كنت أتمنى أن تلبس ثوبا أبيض، وأن تحافظ على نقائه، فزينتها بياض ثوبها الذي ينأى عن النجس، كدت استقر واشعر بالبهجة للمرة الأولى في حياتي عندما رأيتها تستقر في عمل

يناسب ذوقها، حتى رأيت ما في جوف خزانتها من العطور، فعلى الرغم من مشاحناتي السابقة معها، إلا أنني قدمت لها كل قرابيني كي تنعم في حياتها.

أتذكرها عندما كانت صغيرة بعمر الورود، بالغة الرقة راقبتها مرة وهي تقطف الياسمين من حديقتنا في عمّان، كانت أناملها الطرية تمسك زهرة الياسمين وتضعها في سلة صغيرة، أحببت هذا المشهد وزرعته على جدار قلبي، لم أفتأ أتذكرها به، فتدمع عيناي فرحا وحزنا، تمنيتها كما هي جميلة رقيقة، في خدها حب من المسك.

تأخرت عن البيت، قاربت الساعة الثامنة والنصف ولم تأت بعد!

ازداد غضبي وقلقي، حاولت الاتصال بها مرارا، كان هاتفها مغلقاً، هي في العادة لا تترك جهاز الهاتف من يدها، فماذا حدث ليكون مغلقا هذا اليوم، ألأنني بحاجة ماسة للاطمئنان عليها؟ أم إن مكروها _لا قدَّر اللّه_ حصل لها! الوقت يمر، وهي لم تحضر بعد، حفصة عادت من عملها في فترة بعد الظهيرة ومريم لم تحضر بعد، سألتها عن مريم، فأجابت بأنها قابلتها في المتجر قبل انتهاء عملها ولكنها لم تتحدث معها كثيرا، وعندما انتهت من فترتها، رايتها تغادر في موعد المغادرة.

أججت إجابة حفصة النار في قلبي، هي أحيانا تتأخر في مجيئها إلى البيت، أنا لم أتحدث معها أبداً عن هذا

الأمر، اليوم أنا أنتظرها منذ الصباح، أريد محادثتها والاستفسار عن أشياء كثيرة في حياتها.

لم تعد مريم طفلة صغيرة، إنها تكبر بسرعة فائقة، لم أعد قادرة على السيطرة عليها، إنها تكبر وتكبر معها المسؤوليات... فهل ألوم نفسي على عدم محبتها للدراسة؟ وهل ألوم نفسي على أنها جميلة حد العبث؟ وهل أنا المخطئة في مشاكل الكون؟ أأنا الذي ضرب هيروشيما بالقنابل الذرية؟ أم أنا التي اخترعت الربيع العربي، الذي ذهب ضحيته معمر القذافي؟ أم أنا الذي فعل فعلة شنيعة فتقسم الوطن باتفاقيات وعهود ما انزل اللّه بها من سلطان، سايكس بيكو وسان ريمو والمشؤوم بلفور، وهل أنا وحدي مسؤولة عن جرائمهم بحق الإنسانية...؟

لكن مريم ابنتي الوحيدة، التي تحتاج مني كل عناية ودعم، فهي بحاجة لتتعلم مهارات ضرورية للمحافظة على حياتها، كنت أوفر لها كل ما تحتاج عند ولادتها، وحتى كبرت، لكنها اليوم لا تستطيع محاكاة الطبيعة، فقد حاولت معها كل السبل التي أعرفها والتي تعلمتها لأعلمها لها، حتى تنشا نشأة سليمة، ويكون لها هدفا معينا واضحا في حياتها، أنا لا ألمس هذا الشيء في سلوكها، ولا أجدها تشبه أحدا من بنات جيلها، لكنني أجد سلوكها مع الأسف الشديد، سلوكاً رديئاً ولا يوافق طبيعتها.

فهل يحدث عند الآخرين ما يحدث معي عندما لا أجد فرجا لضيقي؟

فانا أتمنى الموت والراحة الأبدية على العيش في ظروف قاسية مثل ظروفي، الظلام دامس وما من بريق أمل، فلا أرى أمامي ولا أرى خلفي، العالم أسود كالليل البهيم، أنا أحسد من يموت موتا فجائيا، فإنه لا يضير أحدا، ولا يفسد حياة الآخرين، ويكون له منزلة في الجنة، وليس كالذي يموت وحيدا، في الخلاء، يترك كجثة هامدة تتكاثر عليها الذئاب، ولا يجد له مكاناً في السماء، مات وحيدا، وعاش وحيدا.

ما زلت أنتظرها، انتصف الليل، ولم تعد بعد، تفوق الخوف على الغضب، ازداد القلق كلما تناقص الليل، تمنيت عودتها سالمة فلم تعد، شقشقت خيوط الشمس ولاحت تباشير الصباح... ومريم غائبة في لجة سرها.

حفصة أيضا قلقت لقلقي، وأخذت تواسيني بكلمات رقيقة، وتطبطب على كتفي، محاولة طمأنتي، أقلقتها معي هذه الفتاة المغربية الحنونة. لولا وجودها لكانت حياتي أصعب بالتأكيد.

فكرت مليا بالاتصال بأحمد، لكنني لم أشأ أن أدخله في مشاكلي في هذه المرحلة من علاقتنا. لكن تفكيري به طغى على كل تفكير، إنه بالتأكيد عزوتي، نعم عزوتي، ولكنني آثرت عدم إقحامه بهذا الوضع الذي أعتبره غير طبيعي، بخاصة وأنا لا أعرف سبباً لغيابها.

(11)

غادرت مريم عملها الساعة الخامسة، أخذت تتجول بين المحال التجارية ذات الواجهات الزجاجية البراقة، تسير بخطوات بطيئة، فتسير معها عيون الرجال وأحيانا عيون النساء، هي ملفتة بجمالها ودلالها الطبيعي غير المتكلف، تتلألأ كنجمة مسائية لكنها أكثر النجوم جمالا، تمشي بكامل أناقتها قدماها تغيبان تحت رباط صندلها المصنوع خصيصا لأمثالها من النساء...

صعدت إلى الطابق العلوي باتجاه ردهة السينما، جلست في مطعم "تشيلز" أخذت تراقب رواد السينما من شباب وشابات من كل الجنسيات، ثم طلبت حساءها المفضل؛ حساء الفطر مع قطع الدجاج، وطلبت الحجم الكبير، فقدم لها مع قطع البسكويت المالح، فهي تعشق هذا الحساء في هذا المكان، تناولته بنهم، وتمنت أن تطلب صحنا ثانيا إلا أنها آثرت المحافظة على قوامها الرشيق.

كان لا بد لها أن تذهب إلى "التواليت" بعد وجبتها اللذيذة، كعادة معظم النساء العصريات، لترتيب زينتها.

فتحت حقيبة يدها الجلدية الصغيرة، وأخرجت أدوات الزينة قلم الكحلة، وأحمر الشفاه، ونثرت بعض العطر من زجاجة صغيرة (شانيل 5)، ثم أعادت الأشياء إلى مكانها في الحقيبة، فلاحظت كرت رجل الأعمال.

عادت إلى طاولتها في مطعم "شيلز" وطلبت فنجان قهوة "اسبر سو" صغير وأخرجت هاتفها لتصفح الإنترنت، تقلب الصفحات دون تركيز، وكأنها تفكر بأمر آخر يختلف عما تعبث به بهاتفها السامسونج، وفجأة عادت وفتحت حقيبة يدها وتناولت منها الكرت.

وبدون مقدمات طبعت الأرقام العشرة وانتظرت رد الطرف الآخر.

جلست قرابة الساعة بعد مكالمتها الهاتفية، ثم طلبت فاتورة الحساب، وناولت النادل إكرامية كبيرة، وسارت باتجاه الطابق السفلي، ثم إلى المرآب، ووقفت بجانب الرصيف المقابل (f15) بعد دقيقة واحدة وقفت سيارة جيب شيفروليت سوداء، نزل منها سائق باكستاني أسمر، فتح لها باب السيارة صعدت إلى المقعد الخلفي، فإذا رجل العطور بانتظارها، جلست بجانبه، بعد أن أغلق السائق الباكستاني الباب خلفها بهدوء...

عادت مريم إلى بيتها في ساعات الصباح الأولى، فتحت الباب بمفتاحها الخاص، دخلت غرفتها حيث كانت أمها بانتظارها...

أين كنت؟

_ كنت عند صديقة لي في بيتها وسهرنا معا حيث كان في ضيافتها صديقة أخرى قادمة من فلسطين، أخذنا الكلام حتى وقت متأخر فنمت عندها، لم أشأ العودة متأخرة فبت ليلتي هناك...

- ولماذا تلفونك مغلق؟

_ فرغ من الشحن ولا يوجد عند صديقتي شاحن سامسونج.

- ولكن من هي صديقتك هذه؟ أنت لم تخبريني عنها أبدا؟

_ لم تاتِ فرصة لإخبارك عنها، إن شاء اللّه قريبا سأقدمها لك، فهي فتاة رائعة...

كنت سألتك أول من أمس عن زجاجات العطر التي في خزانتك، ولم تخبريني بحقيقة أمرها، فهل ثمة ما تخفينه عني؟

_ همهم ، زجاجات العطر؟ هي للشركة، أنا أخذتها بنية بيعها للأصدقاء ولآخذ عليها نسبة من الربح، تماما مثلما تبيع الصينيات العطور في العمارات السكنية... لكنني لم أبع منها أي شيء بسبب حيائي...

ارتاحت سلمى لحجة ابنتها واطمأنت، قضت ساعات ما قبل الظهر في سريرها، لعلها تستريح من معاناة

ليلة طويلة، وعلى أمل أن تحلم بأحمد الذي سكن في عمق وجدانها...

(12)

تحيرت كثيرا في اختيار ملابس تناسب مشوارها المسائي مع أحمد، فهي التي حددت مكان اللقاء، وهي التي قررت أن يركبا قاربا صغيرا يسير بهما في جولة بحرية، فاختارت بنطلون جينز أزرق وبلوزة حمراء ولا شيء فوق الرأس...

الساعة السابعة في العبرة، أوقفت سيارتي ووضعت تذكرة وقوف لمدة ثلاث ساعات، سرت على طول

الرصيف أنتظره، أرقب الناس وهي تنتقل من ديرة لبر دبي في قوارب صغير بعضها يحمل عشرة أشخاص وبعضها شخصا أو شخصين، المكان مزدحم بالناس من مختلف الجنسيات، لكن العرب اقلهم وجودا، القوارب مصطفة كجنود رومانيين مدججين بالسلاح التقليدي، وترسو قوارب فاخرة فارهة مقابل الفنادق الكبيرة على ضفة البحر، أسير بخطوات بطيئة على طول الرصيف ولا أنفك انظر تجاه موقف السيارات، مرت الدقائق العشر الأولى ولم يحضر...

أأتصل به أم أنتظر خمس دقائق ليأتي براحته؟ ربما الانتظار أفضل، وبالفعل بعد خمس دقائق رأيته قادما من موقف السيارات، سرت بخطى سريعة نحوه، أظن أنه لا يراني بعد، فأنا لا ألبس العباءة التي رآني فيها في

المرتين السابقتين، ولم يتعرف علي إلا عندما صرت على بعد همسة منه...

أحمد... ألم تعرفني؟ ابتسم مادا يده لمصافحتي، فصافحته بحرارة الشوق والحب والحنين...

قال: " شكرا على مجيئك عزيزتي، كم كنت محتاجا إليك، لقد ألهب الحنين صدري، ربي يبارك فيك بعدد الساعات التي بدت لي بلا نهاية في غيابك...".

_ وأنا أيضا محتاجة إليك عزيزي... بوركت...

سرنا جنبا إلى جنب على طول الرصيف، ثم عدنا أدراجنا إلى جهة الموقف...

لماذا لا نستأجر قاربا؟ قلت له.

- أنا أعرف شخصا لديه قارب صغير اعتدت استخدامه بين الفينة والأخرى، اسمه سلطان، دعيني اتصل به لأرى إن كان موجودا فنصعد معه، إنه شاب لطيف.

وبالفعل اتصل بسلطان الذي أخبره بموقعه على الرصيف، سرنا ناحيته، فسمعت صوتا ينادي: " أهميد أهميد"... عرفه، هو صوت سلطان البنغالي، صعدنا القارب، سُعد سلطان سعادة كبيرة عندما رأى أحمد، سلم عليه بحرارة، وأفسح لنا الطريق وهيأ مكانا في نهاية القارب الصغير لنجلس بجانب بعضنا البعض...

قلت لأحمد: " إنه لطيف"...

_ نعم، فانا آتي إلى هنا من وقت لآخر ولا أصعد إلا بقارب سلطان، أعرفه منذ خمس سنوات تقريبا...

كنت في غاية السعادة تلك الليلة، أعرف الآن لِمَ أنا من بين نسل الأرض والسماء الأكثر حظوة بالسعادة...

سار بنا القارب عبر خور دبي تجاه "دبي جولف" المكان هادئ جداً بعد أن أوقف سلطان محرك القارب عن العمل، فلا يكسر من هدوئه إلا تلاطم الماء الخفيف بجسم قاربنا الصغير، وأضواء دبي الرائعة، وأمامنا المنظر الجميل لبناية نادي "دبي جولف"... سكت كل شيء إلا قلبينا اللذين امتزج نبضهما بنغم كلاسيكي ضمن اوركسترا المحبة الأبدية...

أمسك يدي اليسرى ووضعها في كف يده وقربها إلى شفتيه قائلا بصوت هامس: " أحبك"... وسكت مرة واحدة...

_ وأنا أحبك...

صمت جميل وطبيعة جميلة، وعتمة تكسرها حدة الأضواء... أخذ قلبي يرقص طربا، فأحمد يعترف لي بحبه في هذه البقعة بالذات، ليقول لي بأن سعادتنا تكتمل...فلتحمل الرياح تلك الأحزان بعيدا عني، أما الحمائم البيضاء فقد باتت أجنحتها ثقيلة، وقلوبها دافئة، تبني أعشاشها قرب نافذتي الصغيرة، لم يكن ليخطر لي أنني سألمس السماء بيدي، أسدل الليل ستائره علينا، اقترب مني فاقتربت أكثر إلى أن التحمت

شفاهنا بقبلة طويلة حملتنا إلى الوادي المقدس... لم نفقْ من غفوتنا إلا عندما أشعل سلطان محرك القارب من جديد...

عدنا إلى الرصيف، سرنا جنبا إلى جنب نحو مرآب السيارات، صعدنا في سيارة أحمد، تاركين سيارتي مكانها، وذهبنا لتناول طعام العشاء في مطعم نيوزيلندي "بامبو لاجون"....

صعدنا في مصعد مزين بماء الذهب، محاطا بالمرايا من كل جانب، ومشينا في ممر ضيق على جانبيه تسير جداول ماء صافٍ، وفيه تعيش اسماك كثيرة وبأحجام وألوان مختلفة، وصلنا إلى مدخل المطعم، كان النادل في استقبالنا، فهيأ لنا طاولة في منتصف المطعم،

كانت قريبة من كل شيء، المطعم واسع إلى حد ما، لكنه ليس كبيرا، ونظامه قائم على الخدمة الذاتية، توجهنا إلى بوفيه الحساء، فيه أكثر من نوع، لكنها جميعا تحتوي على فاكهة البحر، تناول أحمد صحنا مجورا من القاشاني، قدمه لي وتناول صحنا آخر لنفسه، واخذ يضع في صحني بعض الخضار ويضع في صحنه المثل، ثم سكب الحساء، سكب مغرفتين في صحني ومغرفتين في صحنه، حمل عني الصحن ومشيت أمامه نحو طاولتنا، هذا الحساء الذي أحبه في هذا المطعم يا حبيبتي، رغبت مشاركتك كل ما أشتهي من أماكن ومأكولات وأشياء أخرى، ابتسمت له قائلة: ربي ما يحرمني منك...

أحضر النادل ثلاثة أطباق مختلفة، تحوي قريدس مقلي وقطع صغيرة من الأخطبوط وفي الآخر لوبستر مشوي، بناءً على طلب أحمد...

الطعام كثير جدا، قلت له، ولكنه لذيذ، لأنك معي يا عمري...

تناولنا طعامنا على أنغام معزوفات نيوزيلندية يقوم بعزفها عازفان وعازفتان، من سكان نيوزيلندا الأصليين، تفاعلنا مع الموسيقا، وتمايلنا على ألحانها، فكانت أجسادنا تتموج كتموج السنابل وقد داعبتها نسمة صيف، شربنا بعض النبيذ الأحمر، فكانت أجمل أمسية في حياتي دون مبالغة...

خرجنا من المطعم سعداء تكاد لا تسعنا الدنيا من الفرح، عاد بي إلى سيارتي، وفي قرارة نفسي لا أريد تركه، ولكنه ودعني بقبلة أججت نار العشق في نفسي، وذهب إلى سيارته الأنيقة...

كنت لا أزال محلقة على اثر تلك القبلة الملتهبة، فتحت الموسيقا في سيارتي على أم كلثوم وهي تغني أقبل الليل يا حبيبي، عشت مع كلماتها كلمة كلمة، فأثارت لهيب الوجد في روحي، فانهمرت الدموع من عيني دون وعي مني، كفكفت دموعي بمنديل ورقي، فانهمرت من جديد مع كل مقطع، شعرت أنني أنا المقصودة في كلمات الأغنية الرائعة، لقد حركت كل خلية في جسدي، وسحبتني على بساط العشق أطوف معه في كل اتجاه، أحلق فوق السحاب الأبيض

تارة، وتارة أخرى أحط على سطح بحيرة تحيطها أشجار السنديان والكينا، لأول مرة في حياتي أشعر بالموسيقى تتغلغل في شراييني، وتمر من خلالها على قلبي وكبدي، وتستقر عذوبتها في عقلي... لم أدرِ كيف طاوعتني نفسي لتركه، فلماذا لم نكمل ليلتنا في ذلك القارب بين النجوم وخرير الماء العذب، لماذا لم نكمل طقوسنا الأسطورية في بامبو لاجون؟ لماذا لم أتأبط ذراعه وأسير به نحو الشمس لنستقبل معا أفق فجر جديد؟

"أواه يا ليل! طال بي سهري وساءَلتني النجوم عن خبري، ما زلت في وحدتي أُسامرها، حتى سرت فيك نسمة السحر...وأنا أسبح في دنيا تراءت لعيوني قصة اقرأ فيها صفحات، بين ماض لم يدع لي غير ذكرى عن

خيالي لا تغيب، وأمانٍ صورت لي في غدٍ لقيا حبيب لحبيب.

النوم ودع مقلتي والليل ردد أنّتي! والفجر من غير ابتسامك لا يبدد وحشتي، يا هدى الحيران في ليل الضنى، أين أنت الآن؟ بل أين أنا... أنا قلب خفاق في دنيا الأشوق، أنا روح هيمان في وادي الأشجان، تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى، لست أدري يا حبيبي من أنا؟ أين أنا؟"...

حركت كلمات الأغنية كل ذرة في بدني، جعلتني أبكي، وأذرف الدمع مدرارا، فقررت العودة حيث التقينا، عدت أدراجي من أول مفرق، وقادني إحساسي إلى مرآب السيارات، أركنت سيارتي، وجعلت المحرك دائرا، أخذت

أسمع الأغنية مرة ومرتين وثلاثا متخيلا نفسي بين ذراعيه، لا أريد لهذا الليل أن ينتهي، لا أريد لسعادتي أن تتبدل...

عدت إلى البيت، الساعة الثانية بعد منتصف الليل، مريم غير موجودة، حمدت اللّه أنها ليست بالبيت، ربما تكون مع صديقتها الفلسطينية، لا بأس، من الأحسن أنها ليست بالبيت، فلا أريدها أن تلاحظ تأخري، ولا أريد أي شيء ينغص علي ويقلب سعادتي هما، أخذت أعيد شريط يومي من أول لقائي بأحمد لغاية أخر كلمة من (أقبل الليل)، وأقول لنفسي، ها هي الحياة تبتسم لك أخيرا يا سلمى، فلتعيشي الحياة كما رسمها القدر، ولا تفلسفي الأمور، لأن البساطة

قيمة لا يعرف مغزاها إلا الذين يعيشون حياتهم دونما تعقيد.

أغمضت عيني لأستحضر طيفه، ونمت نوما جميلا لم أعهده منذ ولادة مريم قبل عشرين عاما...

(13)

لم يعد رجل الأعمال يذهب بنفسه لإحضار مريم من مرآب السيارات على الرصيف(f15)، بل صار يرسل سائقه الخاص للقيام بالمهمة، فتجلس هي وحدها على الكرسي الخلفي في سيارة الشيفروليه السوداء الفخمة، صارت تتأخر كل يوم تقريبا، فرجل الأعمال يريد أن يتباهى أمام أقرانه بهذه الفتاة الجميلة، فيقيم الحفلات في شقة فخمة وسط دبي، امتلكها خصيصا ليقيم حفلاته... صارت مريم جزءاً مهما في الشقة، فاقت أهميتها زجاجات الويسكي ذات الماركة الزرقاء،

والتي يتباهى أيضا أمام أصدقائه باقتنائه عددا كبيرا منها في باره المصنوع خصيصا من الرخام الإيطالي المطعم بالحجارة الكريمة، الرجال أيضا يحضرون صيدهم من الصبايا الجميلات إلى تلك الحفلات الحمراء، لكنهم في حقيقة الأمر كانوا يحسدون الرجل على مريم لأنها أكثر جمالا وإثارة من جميعهن، فقال لهم ما يغلى عليكم غالٍ، فقدمها هدية لأحدهم، الذي صعد بها إلى غرفة في الطابق الأعلى ليعود بعد ساعة وقد ذهل مما رأى، ما جعل بقية الرجال يشتهونها بكل جوارحهم.

قدم لها أحدهم ساعة يد رولكس هدية عندما جلست بقربه، فأججت بأنفاسها شهوته، مدت يدها اليسرى إليه فلثمها بشفتيه ووضع الساعة في

معصمها، ودعاها لترقص رقصة أمامه، فرقصت على أنغام "ليلة حب" لأم كلثوم، ما جعلها محط شهواتهم أجمعين، نالت كل ما حلمت به من مال وثراء... لكنها رحلت، إلى مكان لا يصل إليه إلا من هو بمثل حالتها، لا تعرف للحب معنى ولا للحياة مستقراً، لا عزة ولا كرامة تباع أمام عينها من رجل إلى آخر، كالعبيد تسترق، يمارسون معها طقوسهم الحيوانية، متهنين أدميتها، فقد دخلت إلى عالم ليس له قرار، عالم سفلي، الداخل فيه مفقود... مفقود...

تفاحة شهية كانت هي على أعلى الأغصان، فتناولها قزم يقف على رؤوس أصابعه، وقضمها بأسنانه الأمامية وطحنها بأضراسه طحنا، وقدمها لقمة سائغة للجوارح، بعد أن فتك بها فتكا، حاولت الرجوع

إلى حالتها الأولى تفاحة حمراء شهية على الأغصان العليا بعيدة عن متناول الجميع، لكنها فشلت فشلا ذريعا، لم يكن بإمكانها العودة إلى شكلها الجميل، ولم يكن بإمكانها اكتساب اللون الأحمر من جديد، صارت رمادية لا لون لها، صارت صفراء كلون الخريف، مُرة كالعلقم، لم تنجح بأن تصير تفاحة حمراء أو غير حمراء فبقيت تتنقل من شكل إلى آخر حتى لفظتها كل الأشكال...

لم تدر سلمى ما آلت إليه ابنتها الوحيدة من رذيلة لا تحتملها الطبيعة، ولا الأخلاق، ولا المنطق...

(13)

عاد احمد من مشواره التاريخي مع حبيبتيه يحمل شعورا رائعا، سعيدا بحبه...

كنت أتمنى البقاء معها طيلة الليل لنستقبل أنا وهي معا شروق فجر جديد على مياه الخليج الدافئة، لكنني لن أحتمل مقداراً أكبر من السعادة في أمسية واحدة وفي مكان واحد...

احتضنتُ سعادتي، جلستُ على سريري بعد أن بدّلت غطاءه البرتقالي بآخر ابيض قطني ناصع البياض، تمددت فوقه مسترخيا مغمضا عيني، أمرر شريط لقائي معها، لحظة تلاقينا وسرنا جنبا إلى جنب على طول الرصيف، وركوبنا قارب سلطان ونظرات سلطان الخجولة وكيف كانت السعادة تفيض من عينيها ومن بين يديها ومن شال الحرير على كتفيها...

رجعت بذاكرتي إلى القدس، إلى حيِّنا القديم، إلى سطح بيتنا، كنت أجلس هناك كل يوم بعد آذان العصر بقليل، عندما تميل الشمس إلى المغيب، أحمل كتاب التاريخ أراجع سيرة نور الدين زنكي، هذا الرجل العظيم الذي حمل على عاتقه، تحرير البلاد من رجس الفرنجة، الذين استباحوا الأرض العربية، وكان سلاحه الأهم:

الوحدة بين المشرق والمغرب، بين الشام ومصر، فخلص البلاد من العملاء والمتعاونين مع المحتل الغاشم، وطهرها من رجسهم مرة واحدة، ثم أسس دورا للعلم، والمعرفة...

لا تبعد القبة الذهبية عن سطح بيتنا سوى بضع مئات من الأمتار، تنعكس عنها أشعة الشمس فتعطي المدينة منظرا مهيبا، من الجمال والبهجة... شخصية المدينة قوية وضعيفة بالوقت نفسه، وجمالها كجمال قصيدة رومانسية كتبها احد الشعراء العذريين، فامتازت بأسلوب السهل الممتنع...

كان ابن الجيران عادل والذي يكبرني سنا يقف على سطح بيتهم الملاصق بسطحنا، وينظر باتجاه بيت

عمي أبو خليل، هو ليس أخا لأبي ولكنني كنت أدعو كل جيراننا من الرجال بعمي أبو فلان، وكل النساء من جيراننا بخالتي أم فلان، هكذا تعودنا في حارتنا الجميلة، كان عادل يرمي بورقة مثبتة بملقط غسيل خشبي نحو سطح دار عمي أبو خليل، وبعد دقائق تأتي خولة بنت عمي أبو خليل وهي بنفس عمر عادل، كنت أفكر أنها طريقتهما في الدراسة، لكنني بالتأكيد كنت جاهلا، بل ساذجا...

لا ادري ما الذي جعلني أستعيد مثل هذه الذكريات الغريبة؟ ولكنني سعدت بتذكر القدس وحارتي الرائعة، وأجمل ما خطر ببالي في هذه اللحظات الجميلة هو يوم زفاف ابن حارتنا علي... كنت أسمع خالتي أم علي وهي تتحدث إلى الجارات أثناء جلوسهن في الحوش على

عتبة البيت الخارجية، بأن علي صار كبيراً في السن " وما بده يتجوز... واللّه هذا الولد مجنني ما خليت بنت في القدس إلا ورحت عرضتها عليه ويقول لي ما بدي هذه وما بدي تلك، سود وجهي مع كل صديقاتي في البلد..." لكن علياً اليوم عرسه، أحضر عروسا جميلة نزلت أشوفها عن قرب كانت تغطي وجهها بطرحة بيضاء لا يظهر من وجهها الجميل إلا خيال خفيف... عروس علي من نابلس وعمرها خمس عشرة سنة، وهو عمره أكثر من ثلاثين سنة. كانت عروس علي تسير على قدميها محاطة بنساء الحي وبأقاربها الذين جاءوا معها من نابلس، نساء نابلس يشبهن نساء القدس كثيرا، كلامهن متشابه ولبسهن متشابه، ويضعن جميعهن أحمر الشفاه والكحلة وشعرهن بين الأسود

والبني الخروبي، وكانت أم جلال تنثر الأرز على العروسين عندما مرا تحت شباك بيتها، وأبو علي ينثر الملبس فوق الرؤوس والأولاد يحاولون التقاط بعضها عن الأرض وأنا أحاول طيلة الوقت اقتناص نظرة نحو العروس، لكي أرى مدى جمالها الذي تحدثت عنه كثيرا نساء حينا...

تسير العروس الجميلة ببذلتها البيضاء بين النساء، ويظهر عليها الاستحياء، تنظر نحو الأرض لكنها تبتسم ابتسامة خفيفة خجولة، اجتمعت بنات الحي في ركن واحد قريب من بيت أم محمد المصري، أما الشباب فقد أحضروا فرسا جميلة لونها أبيض، عليها سرجا مزركشا بألوان العلم الفلسطيني الأربعة، ركب عليها العريس عليّ بمساعدة الشباب، أخذوا يزفونه في حيِّنا وفي الأحياء القريبة، تجولوا به في

حوش البسطامي وطريق المئذنة الحمراء، وعقبة شداد وطريق القادسية والعودة إلى حوش البسطامي، ينثرون عليه الأرز والملبَّس كلما مررنا بأحد البيوت الكبيرة، الجميع فرحون سعداء، وعليّ فوق الفرس يحمل بيده سيفا قدَّمه له أبو يحيى وكان عمر احد شباب حارتنا يهتف بكلمات الزفة والجميع يردد وراءه:

"نِيّالك يا أبو الحطة من وين جايب هالبطّه؟

نِيّالك يا أبو الفلوس من وين جايب هالعاروس

أوهون واربط باب الدار تتطلع بنت المختار

كنت أعزب داير مرتاح وامشي بين الشبان

قلي عقلي واجّوز واخزي عين الشيطان"...

كانت أيام حلوة ... هذه بعض ذكرياتي، بل بعض أوطاني، أحملها في قلبي وفكري أينما ذهبت، وأينما حللت... لا أدري كيف للمرء أن يستحضر جانبا من ذكرياته دون الآخر؟ أهي الحالة التي أعيشها تستحضر ما يتعلق بها من ذكريات؟ نعم، بالتأكيد... اليوم كل طاقتي متجمعة على بساط الزمن، حالة الحب، حالة الهيام، حالة التمني... فهل مشاعري هذه كفيلة لتقنعني بتغيير نمط حياتي التي عشتها هنا في دبي طيلة السنوات الطويلة؟

اليوم حياتي كقصيدة أندلسية اكتملت عناصرها، أنشدها شاعر مرهف الإحساس، على أنغام الطبيعة الغناء، فيها محسنات بديعية تلائم حالة الحب العذري في زمن غرناطة البديع، الجناس فيها عفوي لا تكلّف

فيه، يرقص على إيقاعها السامع فيلقي بنفسه على ظهره مستريحا مطمئنا لما تحمله من معانٍ سامية تُلبس الأحلام رداءها الليلكي، وتسكنها على ظهر غيمة بيضاء...

هكذا نسج حبي لسلمى المرأة الملهمة، تماما مثلما نسج شاعرنا الأندلسي قصيدته... أمّا قصيدتي أنا فعناصرها لم تكتمل بعد...

اتفقت مع سلمى على اللقاء يوم الجمعة القادم في بيتها في "أبو ظبي" فقد دعتي لتناول طعام الغداء، وستجهز الطعام بنفسها...

(14)

ثماني وردات جوري، طلبت من بائع الزهور تنسيقها في باقة جميلة حملتها مع زجاجة (شانيل5) حملتها في طريقي إلى بيتها يوم الجمعة، الطريق واسعة وطويلة، حركة السير خفيفة، وصلت بيتها الساعة الثانية بعد الظهر تقريبا، قرعت الجرس ففتحت لي مريم، صافحتها بهدوء، ودخلت فاستقبلتني سلمى بثوب أسود قصير نسبيا، مطعم بحجارة سوداء منثورة على مساحة الفستان الأمامية بشكل أنيق، وفتحة الصدر تظهر

أطراف نهديها النافرين، وعلى حافة الصدر اليسرى ثبتت بعض أحجار الزركون عليها بطريقة فنية رائعة أعطت للفستان جمالا كلاسيكيا رائعا... قدمت إليها باقتي، فقربتها إلى أنفها مغمضة عينيها فبانت روعة الحياة على وجهها، ثم قامت بِعَدِّ الوردات، وقالت: " ثماني وردات؟" لماذا ثماني؟

أجابتها مريم ضاحكة: " لأنه بخيل يا ماما..."

نظرتُ نحوها مبتسما وقلتُ: اسألي قلبك يا عمري...

ابتسمت وقالت: " إنها أجمل باقة تسلمتها في حياتي...

ضحكنا جميعا وجلسنا في صالة البيت، الصالة صغيرة نسبيا والمطبخ في نهاية الصالة، وفي الركن

الجانبي ثمة طاولة سفرة حولها ستة مقاعد منجّدة بلون ماهجوني كلاسيكي، فوقها غطاء خمري مزركش على الطريقة الهندية، وفي واجهة الصالة نافذة عريضة تطل على المدينة ومن ورائها البحر بمياهه الزرقاء، وخلف طاولة السفرة شرفة عريضة تشبه الترس تطل على الصحراء البعيدة...كانت أمامي طاولة زجاجية موضوعة بوسط الصالة وضع فوقها صحن زجاجي شفاف فيه بعض الشكولاته، وآخر بجانبه وضع فيه بعض التمر... و ومنفضتا سجائر زجاجيتان... كانت سلمى منهمكة في تجهيز الطعام، ومريم تجلس أمامي تلبس تنورة سوداء قصيرة تكشف ساقيها بشكل إباحي، وبلوزة بيضاء تكشف ثلاثة أرباع صدرها، وشعرها منسدل على ظهرها ومرخي

على وجهها بطريقة مثيرة، جلست أمامي مباشرة ووضعت رجلا فوق الأخرى، أشحتُ بوجهي عنها، فبدأت تتحدث معي بطريقة تلفت الانتباه إليها، ذهبتُ إلى المطبخ عرضت على سلمى المساعدة، لكنها أصرت أن أجلس وأستريح، ألهيت نفسي بقراءة مجلة للأزياء كانت على رف خشبي صغير... هذه المجلة لي قالت مريم، أنا أشتري مجلات الأزياء والموضة، أحب التعرف على كل جديد... لم ألتفت إليها ولم أبادلها الكلام، بل أكملت تقليب صفحات المجلة بصورة ميكانيكية تظهر نفورا مقصودا حتى أدفعها عني وأبعدها مسافة تكفيني للتنفس بحرية، ما بها تتصرف أمامي بهذه الطريقة المنفِّرة؟ تحاول دون جهد إظهار مفاتنها أمامي... حاصرتني بكل اتجاه، لدرجة

أنها تمددت على الكنبة لتظهر شبه عارية، قدمت لي كأس ليمون ومررت إبهامها على ظهر يدي بطريقة مقصودة، سحبت يدي بسرعة وتركت كأس الليمون على الطاولة الزجاجية...

ماذا دهاها هذه المرة؟ إنها غريبة الأطوار...أحاول الهرب منها في كل اتجاه، ذهبتُ مرة ثانية إلى المطبخ لأكون بجانب سلمى، شعرت بأنها الوحيدة التي تستطيع تخليصي من هذه العابثة، لم أترك المطبخ حتى انتهت سلمى من إعداد الطعام، كانت رائحته شهية، أعادت لي ذكريات الطعام الحقيقي، طعام والدتي الشهي، أعدت لنا ضلعة محشوة بالأرز المصري مع قطع صغيرة من اللحمة، احتاجت لطهيها ست ساعات على نار هادئة، كما أعدّت أنواعاً مختلفة من

السلطات الشهية: سلطة خضار طازجة ومتبل باذنجان، وحمص على الطريقة المقدسية، كانت قد تعلمتها من حماتها في عمان، جلس ثلاثتنا حول طاولة السفرة، جلستُ بقرب سلمى، وجلست مريم مقابلنا، الطعام شهي والجلسة رائعة لولا تحرشات مريم الصبيانية، كانت تمد قدمها محاولة لمس قدميّ، أحاول جاهدا التهرب منها دون جدوى، ما شتت تركيزي وأفقدني شهيتي للطعام، لا أعرف إذا لاحظت سلمى أفعال ابنتها أم لا!! لم يعد الأمر محتملاً، قمت عن السفرة مستأذنا سلمى، فقامت معي، جلسنا في الشرفة فلحقت بنا مريم، لم تتوفر لي الظروف للحديث مع سلمى، بسبب وجود مريم، كانت تحاول منع انفرادنا متعمدة، فهل هذا طبعها؟ أنا لا افهمها أبدا فهل

هي التي تصنع مزاجها بنفسها؟ أم هي طبيعتها التي ولدت معها من الأساس؟ أم هي مرتبطة بحالة عامة، لتكون هي حواء الظاهرة العامة في المدينة، بالرغم من أننا نعيش في مدينة تنتمي جذورها وتراثها إلى طبائع مبنية على التراث العربي الإسلامي المحافظ، ولكن ثمة أمور تجعل الحياة بعيدة أحيانا عن فلسفتنا العربية الإسلامية، حالة كحالة مريم لم أتوقع بحياتي أن أقابلها، بل إنني لم أتخيل نفسي في موقف أدافع به عن مبادئي أمام طفلة عابثة لدرجة الإعياء الآدمي، حواء أنت يا ذخيرة الأمة كما وصفك المفكر العربي أحمد أمين وكما وصفها كمربية وصانعة للأجيال معروف الرصافي، اليوم تنهار صورتها أمام عبثية الفتاة المستهترة بكل القوانين... إنها طفلة صغيرة لم

تكن تربيتها شاذة، فهل هي التي صنعت طبعها بنفسها؟ وهل يمكن للإنسان أن يصنع طبعه بصورة تختلف عن السلوك العام للمكان الذي يعيش فيه؟ الطبع أو الخلق هو الخاصية التي تتميز بها إرادة الشخص وتجعله مرتبطا بمبادئ أخلاقية محددة شرعها له عقله...لكن هذه المبادئ عند مريم سيئة جدا وفاسدة، فهل خضعت مريم لمبادئ ومسلمات اكتسبتها من البيئة المكانية أو الاجتماعية؟ هي تساؤلات لإجابات قد تكون سببا من أسباب انهيار منظومة اجتماعية مركبة من تيارات إنسانية مختلفة، كالتي توجد في دبي...

دبي، فيها تناغم اجتماعي فريد، فالمجتمع هنا في دبي مكون كفرقة أوركسترا كبيرة، كل فرد فيها يجيد

العزف على آلة مختلفة، وثمة مايسترو يوزع النوتة على أفراد هذه الاوركسترا، وعند بدء العزف، تصدر عنها موسيقا متناغمة منسجمة مع الإيقاع الموسيقي الفريد... لكن بعض أشباه العازفين يحاولون المشاركة في العزف دون التقيد بنوتة المايسترو فتنشِّز بعزفها عن القاعدة الموسيقية مثل الذي حصل مع مريم.

استأذنتُ سلمى بالمغادرة، بعد أن شكرتها على دعوتها الطيبة، ولأنني مسافر إلى دبي، ولا أحب السفر متأخراً في الليل، وقبل أن أودعها، سألتني مريم إذا كانت تستطيع السفر معي إلى دبي، فاعتذرت منها قائلا بأنني سأزور قريبا لي في "أبو ظبي" قبل الرجوع إلى دبي، ودعتها على أمل اللقاء في الأسبوع القادم...

(15)

هاتفتني سلمى فور وصولي للاطمئنان عليَّ، فلمست من كلامها، بل ومن صوتها الحزين أنها قلقة من طريقة مغادرتي بهذه السرعة، ولأنني لم آكل كما كانت تشتهي، لم أعرف بماذا أجيبها، ولم أدر ماذا أقول لها.

كان الطعام جيدا وشهيا يا حبيبتي، شكرا لك...

_ لكنك لم تأكل كفاية.

- أكلتُ حتى شبعت يا عمري.

_ لكنني لاحظت انك متضايق، فما الذي سبب لك كل ذلك الضيق؟

- لا، لم أكن متضايقا أبدا حياتي.

_ أنتَ لا تستطيع إخفاء شيئ عني، فأنا حبيبتك التي تشعر بك، أختلف عن بقية الناس، فلا تحاول الإخفاء.

- صدقا لا يوجد شيء لأخفيه عنك... دعينا من هذا الكلام ولنتحدث عنك أنت يا حبيبتي... فقد كنت مبتهجة حقا، أحببت تسريحتك كثيرا، كان شعرك جميلاً جدا، أتمنى منك المحافظة على طوله فلا تقصيه أبدا، أنا أحبه كما هو طويلاً... وفستانك عذب، رائع رائع، لونه مناسب لبشرتك البيضاء

الشفافة، كنتِ بالفعل أنيقة، وأنا أغبط نفسي عليك يا روح الروح.

ـ وأنت أيضا كنت أنيقا جدا، لكنك لم تخبرني لماذا ثماني وردات؟

- ألم تقل لك مريم بأنني بخيل...؟

ـ لا، صدقا قل لي: ماذا تقصد بالعدد "ثماني"؟

حاولي إيجاد الحل لهذا اللغز... وإن عجزت أخبرك...

ـ صدقني حاولت ولم أنجح بحل اللغز... بحياتي عندك يا عمري، أخبرني حبيبي...

-لأعداد الورود معنى عندما تقدمها لشخص ما يا حبيبتي، فالعدد ثمانية يعني أنني سأكون مخلصا لك حتى الموت...

_ وأنا بدوري أهديك نفس العدد من الورود... ثماني وردات جوري... بحبك.

لاحظ أحمد نبرة الحزن التي تعتري كلام سلمى، فقلق عليها كثيرا، ظن بان مغادرته لبيتها بهذه السرعة هو ما سبب لها كل هذا الضيق، ولم يدر ما دار بينها وبين ابنتها فور مغادرته، فأصبح قلقا... لا أدري ماذا عساي أن أفعل لإرضاء هذه المرأة الطيبة الحنونة؟ أنا أحبها ولن أتخلى عن حبي مهما حصل، لكن مريم عقبة كأداء في طريق سعادتنا، ليس لشيء إلا لأن سلوكها معيب

ومخجل جدا وأنا لن أجتمع بسلمى في حضورها أبدا، سأختلق الأعذار لكي لا نجتمع ثلاثتنا... ولكنها ابنتها ونحن سنصبح عائلة واحدة...

لقد وُضعت في مأزق كبير... فماذا لو أن مريم تحرشت بي وأنا زوج لأمها؟ فهل الناس سيصدقونني ويكذبونها؟ سيقولون بأن الرجل هو المذنب... وسأقع في وضع لا أُحسد عليه... هذه البنت شيطانة، وتكيد المؤامرات كيدا، فأنا لست بيوسف

(16)

ما بك يا مريم؟

أتظنين أني لم ألحظ تصرفاتك الغريبة مع أحمد؟

لقد أخجلتني، وأحرجت الرجل فلم يتناول طعامه حتى!!!

ما بك ألا تستحين؟

ألا تخجلين من نفسك؟

ألم أقل لك أن تبدلي هذه الملابس بما يليق بفتاة محترمة؟

_ أنا لم أفعل شيئاً، فكل الرجال يحبون النظر إلى مفاتن الفتيات الجميلات...

-أخرسي، وأغلقي فمك، ولا تتحدثي هكذا عن أحمد... فقد أشاح بنظره عنك ولم ينظر تجاهك، تجاهل وجودك، وقضى معظم وقته بالمطبخ، ليبتعد عن محاولاتك المكشوفة، الدنيئة... فأنا نفسي أُحرجت ولم أطق النظر نحوك... أنت شيطانة...شيطانة... شيطانة والعياذ باللّه...

_ أنا ابنتك... وهذا رجل مثل كل الرجال يطمع بالحصول عليك، وعندما يأخذ منك مبتغاه فإنه يرميك ويبحث عن غيرك، أنا أعرف هذا الصنف من الرجال؟

احمر وجه الأم وصعد الغضب إلى رأسها، فانفجرت بمريم قائلة: قلت لك بأن لا تأت على سيرة أحمد بهذه الطريقة، انت لست ابنتي التي أعرفها، ابنتي التي تركْتُ الدنيا من أجلها ماتت من يوم ما عصت كلامي، ابنتي الطيبة البريئة لم تعد موجودة... وا أسفاه على بختي...

ـ قلت لك لم أفعل شيئاً، هو الذي كان ينظر إلي نظرة اشتهاء، جميع الرجال من صنف واحد فلماذا تعتقدين أن أحمد يختلف عنهم؟

قلت لك أغلقي فمك، ولا تتحدثي عن أحمد إلا باحترام، فهو سيكون زوجي قريبا، وبمثابة أب لك...

ـ يتزوجك؟ أنت تحلمين...!!

-حسبي اللهّ ونعم الوكيل فيك... أظنك لن تبقي يوما واحدا هنا في هذا البلد، أنا لم أعد أتحمل استهتارك وسلوكك الشائن، أوتظنين بأن كذبك بما يخص العطور التي في خزانة ملابسك قد انطلت علي؟ أنا أعرف مصدرها فقد تحدثت مع بعض الموظفات في الشركة، وكن ساخطات على تصرفاتك المشينة وكيف قبلت العطور من أحد الرجال، فأنت نموذج بشع لحواء في هذه المدينة... عليك الرحيل إلى عمان عند أهلك فقد فقدتُ السيطرة عليك.

_ ليكن، قبلت الهدية من رجل، وهذا شيء عادي، هن يحسدنني على جمالي وعلى إعجاب الرجال بي... فأنا لن أذهب إلى عمان، باقية هنا، أعمل وأستطيع الاعتماد على نفسي...

من قال لك بأنك تستطيعين البقاء هنا، سوف ألغي إقامتك.

_ أنت لا تعلمين بأنني غير مقيمة على إقامتي معك، فقد تكفلتني إحدى الشركات منذ شهر وأخذت إقامة منفصلة عنك...

سكتت سلمى مرة واحدة كأن الطير فوق رأسها، صعقت، من هول ما سمعت، من كلام ابنتها الوحيدة، التي تحملت بكفالتها هموم الدنيا كلها، فلا ضابط يضبط هذه الفتاة، لا علم ولا ثقافة ولا تقدير للأمور، فماذا عساني أن أفعل معها؟

لم تهتم مريم لحالة والدتها، بل حملت حقيبتها بعد أن أجرت مكالمة هاتفية... وخرجت قائلة لوالدتها: "باي"...

أدركت سلمى بان مريم، لن تعود، فتحركت في قلبها مشاعر الأمومة، فنهضت من فورها تلحق بابنتها الوحيدة، وتنادي عليها... مريم... مريم... عودي يا بنيتي... عودي...لم تجبها مريم نزلت بالمصعد فتبعتها سلمى إلى الشارع لكنها كانت قد غادرت وابتلعت الطريق كل أثر لها...

بكت سلمى حتى بللت بدمعها صدر فستانها الأسود المزركش، واختلط الدمع بكحل عينيها فصار وجهها كلوحة سيريالية يرتسم عليها بؤس الدنيا...

(17)

على شاطئ الجميرة، التقيا بعد يوم عمل طويل، الساعة الثامنة مساء، كان الشوق قد استبد بهما، والحزن المستوطن في قلب سلمى فتك بروحها المعنوية، والحب المعتمل بصدر أحمد تأجج فصار كمرجل يغلي غلياناً، والحياة، حياتهما تسير على أطراف أحلامهما الأسطورية...

جلسا في مطعم " ذا وارف" المطعم الإنجليزي الراقي، والذي يطل على ميناء السلام الهادئ، والخليج العربي، تناولا طبقا شهيا من الأسماك المعدة على الطريقة

الإنجليزية وتناولا فنجانا من القهوة السادة، واستمعا للموسيقا الهادئة، فكان الجو مفعماً بالسكينة والرومانسية التي شجعتهما على البوح بما يريد كل للآخر، فكان أن طلب أحمد يدها بعد أن أخرج من جيبه علبة مخملية بيضاء فتحها واخرج منها خاتما جميلا من الذهب الأبيض مرصعاً بحجر ماس يبهر القلب والنظر...

فاجأها بعرضه، وفي نفس الوقت أسعدها سعادة لم تشعر بمثلها قط...

نظرت إلى عينيه فوجدت إنسانا رائعا يحمل صفات تحلم فيها كل امرأة على الأرض، حنونا، صادقا، أمينا، مخلصا...

مالت إليه قائلة، يسعدني الارتباط بك يا حبيبي، فأنت ملاكي وأميري...

اتفقا على الزواج، وحددا موعدا بعد شهر من الآن... ثم أكملا سهرتهما في نفس المطعم...

عادت تلك الليلة بسيارتها إلى "أبو ظبي" أرادت أن تستفرد بنفسها، وعاد إليها شريط ذكرياتها مع أحمد من اليوم الأول للقائهما لغاية هذه الأمسية الرائعة، إنها سعيدة، ولم تشعر في حياتها بمثل شعورها هذا اليوم، فعندما تزوجت أول مرة لم يكن خيارها، بل كان زواجا تقليديا، بحيث لم تر زوجها إلّا ليلة زفافها، عندما جاء العريس وأبوه من عمان، قالا لأبي جئنا نأخذ عروستنا، فقال والدي بالحرف الواحد: " ابشر

يا صديقي" وهكذا نقلت طفلة صغيرة بالكاد بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، أما اليوم فهي التي اختارت حبيبها، وزوجها، وحياتها، اختارت أن تعيش بقية عمرها مع الإنسان الذي أحبها حبا لدرجة أنه يعرض عليها الزواج بأجمل الطرق وأرفعها منزلة...كان عرضه رومانسيا بامتياز، وكان تجاوبها رومانسيا بامتياز أيضا...

في طريق العودة تسير سلمى بسيارتها حسب إرشادات المرور، فلا تزيد من سرعتها مهما حصل، تسير على المسرب الأيمن للطريق السريع، وتسمع موسيقا " موتزرت" ...

صورة أحمد لا تفارقها، وصورة مريم أيضا لا تفارقها...

مريم ابنتي الحبيبة، طفلتي الصغيرة، لا تجيب على هاتفي، ولا ترسل لي أية رسالة، ذهبت أبحث عنها في كل مكان، في مكان عملها، فقالوا بأنها تركت العمل دون إعلامهم، وتركت الشقة أيضا، ولا احد يعرف لها مكانا، لم تعد في عيني دموع فقد جفت من الدمع مقلتي، تجولت في معظم أماكن التسوق في دبي، ربما أصادفها فلم أفلح... تعبت وأصابني اليأس، ولكنني استسلمت للواقع المرير، واقع البعد عن ابنتي الوحيدة، فما الذي خرجتُ به من الدنيا؟ خسرت عمري، عشرون سنة لن أحسبها من حياتي، خسرتها حقا، لا أريد العودة إلى أي يوم فيها، لأن أيامي التي قضيتها ألماً ومعاناةً وتحدٍ، تحدي عندما تزوجت في سن الطفولة، وكان عليَّ تقبُّل بيئة اجتماعية غريبة عن البيئة التي

نشأت فيها، خِطاب مختلف ومشاعر مختلفة، وتفكير مختلف، وأنا الصغيرة غير المجربة، توجب علي أن أتعامل مع زوج لا يقدر امرأته، ولا يتعامل معها بحسب رغبته، إنما بحسب أوامر يتلقاها من أبيه، وحماة طيبة إلا أنها نمطية، مثل بقية النساء في منطقتها، الحماة تأمر وتشخط وعلى الكنة الطاعة العمياء... وجارات بعضهن متنمرات مع أزواجهن والبعض الآخر منسيات في بيوت صغيرة قذرة كثيرة الأولاد، كان علي أن أعيش في هذه البيئة، فمرت علي أيام سود في بداية حياتي، كنت أبكي بصمت، ولا أجد من أتحدث إليه عن همومي، ولا أجد من يواسيني، وعندما وضعت مريم، أحسست بالانفراج، ملأت علي حياتي، صرت أقضي

معظم أوقاتي معها كأنها دميتي التي أرسلها لي القدر، طفلة صغيرة جميلة كلعبة الباربي...

لا أعرف أين هي؟ كيف تقضي وقتها؟ ليتني أجدها تنتظرني في البيت عند وصولي، سأسامحها وسأضمها بحضني، ولن أدعها تتركني كما فعلت، ليتها تتزوج وتستقر في بيت وتُكوِّن عائلة وأطفالاً وحركة وفوضى، حفلاتٍ وأعياداً ومناسباتٍ كثيرة وجمعات حلوة كالأيام الخوالي في بيتنا في بيت شما... ما أجمل حياة الطفولة في ضيعتنا! كنا نصعد إلى الجبل نعمل شطحة أنا ورفيقاتي: سماح وغفران ووفاء... ما أجمل تلك الأيّام!

تُرى هل تعود تلك السعادة يوما ما؟

ركنت سيارتها في مرآب العمارة، وصعدت شقتها، فتحت الباب بمفتاحها وأضاءت النور، وبلا وعي ارتمت على الأريكة التي جلس عليها احمد أغمضت عينيها وأخذت تتحسس المكان كأنها تستحضره بجانبها، فباتت ليلتها على الأريكة تحلم بحبيبها.

(18)

في صباح اليوم التالي، توجهت سلمى إلى دبي، تحمل قدرا كبيرا من الهم، وكأنها تقف على قمة صخرة مدببة من الحزن، توجع جسدها الطري كلما تحركت باي اتجاه، وجعها الكبير مريم، ابنتها اللعوب، التي اختارت طريقا كلما فكرت سلمى به لمجرد التفكير، فإن بدنها يقشعر وتتغلغل برودة مؤلمة في أوصالها، على طول المسافة بين "أبو ظبي" ودبي كانت سلمى تقرأ ما تحفظ من القرآن وتدعو اللّه أن ييسر أمرها بأن يساعدها على اقناع ابنتها بالرجوع معها...

سأعطيها كل ما تريد، سأبذل معها كل الطرق، سأخذها بحضني، أكلمها وسأجعل أحمد يتحدث معها وربما هو من يقنعها بالمكوث معي في ابو ظبي، نعم، أحمد سيقنعها بالتأكيد، فهو انسان مهذب، ولبق، وذو ثقافة عالية، بالتأكيد عنده طرقه الخاصة في تهدئة نفسها، سنحيا ثلاثتنا معا في بيت واحد كبير، وستتعلم مريم مثل بنات جيلها في الجامعة، ربما تدرس الهندسة او القانون أو التسويق، ربما تدرس أي مادة تساعدها في الحياة...

الطريق إلى دبي طويل ومل في هذا الصباح، السيارات تسير بحركة رتيبة، تسرع وتبطئ، سيارات اسعاف تلتهم المسافات بسرعة تفوق سرعة الطريق القصوى، صافرتها عالية ومزعجة ومشتتة للأفكار،

نزعت مريم من افكارها، وتقريبا صادرت أحلامها للحظات عندما مرت كالبرق الخاطف في موازاة سيارة سلمى، فهل تمر مشاكلها بهذه السرعة؟

ليت كل شيء مؤلم يمر في حياتنا كما تمر سيارات الاسعاف فوق الطرق المعبدة السوداء... ليت الحياة جميلة بجمال أشجار النخيل التي تزين الصحراء وتوفر الظلال للمسافرين...

بدأت ملامح دبي تظهر شيئا فشيئا، ناطحات السحاب تحلق بالسماء متجاوزة كل الأشياء، كأنها تعانق الأحلام المبعثرة، من بعيد تظهر رمادية اللون، كالأفق الغائص بين الماء والسماء الزرقاء الصافية، رذاذ البخار يحجب الرؤية فحرارة الجو تزداد باطراد مع اقترابنا من

ظهيرة دبي الملتهبة، بدأت الشمس تنعكس بقوة عن زجاج البنايات، طوابير البنايات تقف في استقبال مواكب السيارات القادمة إلى المدينة العصرية، تعطي الحياة في هذه المدينة رهبة من نوع خاص...

ركنت سيارتها في مرآب مركز ديرة سيتي سنتر، وصعدت إلى الطابق الأول مستخدمة السلم الكهربائي، توجهت إلى باريس جليري، دخلت المتجر تبحث عن مريم في كل ركن من أركانه، فلم تجدها، بحثت عن حفصة بحثت عنها في كل مكان لم تجدها أيضا...

غادرت المكان بأسرع مما جاءت إليه، تحمل في رأسها أفكار سوداء مخيفة، بل مرعبة، توجهت إلى الشقة التي تسكن فيها مع زميلتها حفصة، صعدت

السلم سيرا على أقدامها لم تنتظر المصعد الذي كان شاغرا، أخذت تلهث تكاد لا تتمالك أنفاسها. وقفت أمام البيت أخذت تتمتم بكلمات أقرب إلى الدعاء، قرعت جرس الباب، وانتظرت الرد قرعته مرة ثانية وثالثة، ولم تكف عن قرع الجرس حتى سمعت جلبة خفيفة خلف الباب، فُتح الباب، أطل من ورائه راس حفصة الصغير، كانت نصف مستيقظة،لم تكد تعرف سلمى حتى فتحت لها الباب وأخذتها بالحضن، أفسحت لها الطريق، لم تلتقط سلمى أنفاسها بعد، ذهبت من فورها إلى غرفة مريم، فوجدتها مغلقة بالمفتاح...

ـ أين مريم؟

لم تنبس حفصة ببنت شفة... فأعادت سلمى السؤال مرة ثانية:

أين مريم يا أخت حفصة؟

_ لا أعرف...

لم تعجب سلمى إجابة حفصة، نظرت إليها كالمستجدي لإجابة ترضيها وتبعد عن قلبها الحسرة والوجع... قالت حفصة:

مريم تركت العمل دون أن تخبر مدير المتجر كما تركت البيت، دون أن تخبر أي منا، أخذت أشياءها ولم نرها منذ ذلك الحين...

أُسقط في يد سلمى، ارتمت على الأريكة، وأخذت تبكي بحرارة تُحرق قلب من يراها، حاولت حفصة بكل السبل التخفيف عنها، لكنها لم تتمالك نفسها عن البكاء هي أيضاً، أحضرت كأس ماء لسلمى وقدمت لها حبة مهدئ، تناولتها سلمى من غير وعي منها...

شعرت بأن مريم تطيح بها مرة واحدة على حلبة الحياة، تسقطها على أرض اسمنتية مدببة صلبة، تهشم أحلامها قبل أن تهشم عظامها، وبعد أن تسقطها أرضا، تجلدها بسياط الكرامة بسادية، تعذبها، وتقتص منها لأنها أنجبتها وجاءت بها إلى هذه الحياة...

صارت في حيرة من أمرها، فماذا عساها تفعل في هذه الظروف القاسية غير اتصالها بأحمد، فهو ملاذها

الأخير عنده الأمان، والثقة، وراحة البال، فما كان منها إلا أن اتصلت به تخبره بما آلت إليه حالتها...

اتفقا على اللقاء في مطعم الحلاب الساعة الرابعة، تناولا طعام الغذاء في هذا المطعم اللبناني دون أن تفاتحه بما جرى مع مريم، لكنه بفراسة العاشق عرف بأنها تعاني من أمر ما، لكنه لم يتوقع ان تكون المشكلة على النحو الذي هي عليه.

ألح عليها كثير أن تخبره بما يزعجها، حتى رضخت للأمر فأخبرته بأمر مريم، ثم أخذت في البكاء دون توقف.

ذهبت محاولات أحمد لتهدئة سلمى أدراج الرياح في بداية الأمر، لكنها هدأت عندما أمسك يدها مطبطبا عليها، شعرت بدفء آخر يدب بين اوصالها، أحست

بجنانه وهو يحاول جاهدا طمأنتها على مريم، وبأنه سيبحث عنها في كل مكان، وسيعيشون ثلاثتهم في بيت واحد دافئ وسعيد، وستزول هذه الغمة بإذن اللهّ...

أخذ أحمد يفكر في كل اتجاه محاولا لملمة المعومات التي تساعده على الوصول إلى مريم، فقد أخبرته بأنها لا تجيب على هاتفها النقال، وربما تكون قد غيرت رقمها...

ـ هل حاولت ارسال رسالة نصية على هاتفها؟

ـ لا، لم ارسل أية رسالة عندما لم تُجب على هاتفها، فما الفائدة من ارسال رسالة لن تصل إليها...؟

ـ على العكس، فالرسالة النصية عبر الهاتف هي الخيط الذي سيوصلنا إليها في هذه المدينة الواسعة،

إذ ربما تعود لفتح هاتفها ساعة صفوة ولو كان ذلك من باب الفضول، لتبحث عما هو جديد...دعينا نرسل لها رسالة تطمين قصيرة...

تناولت مريم هاتفها وكتبت رسالة تقول فيه: " طمئنيني عنك يا بنيتي فأنا قلقت عليك كثيرا...أحاول الاتصال بك فيعطيني هاتفك إشارة بأنه مغلق..." أنا بانتظارك فثمة أمر مهم عليّ إخبارك به..."

لم يكن من اللائق ان تخبر ابنتها عن نيتها بالزواج من أحمد في هذه الرسالة، فهي تفضل اخبارها مباشرة عندما تراها، أرادتها رسالة طمأنة لا أكثر، متضرعة إلى اللّه أن تقرأ رسالتها فيحن قلبها على أمها فتتصل بها فورا، لكن أملها لم يكن على قدر الرجاء

عندما مر يوما ويومين وعشرة أيام دون أن تصلها من ابنتها إشارة واحدة، أصابها اليأس من البحث عن مريم بخاصة عندما عجز أحمد عن إيجادها بالرغم من جميع محاولات البحث التي قام بها في الفنادق ومراكز التسوق في دبي، وحتى في المطاعم الراقية وغير الراقية، كان كالذي يبحث عن إبرة في كومة قش، أصبحا غير متأدين إذا كانت ما تزال في دبي أم غادرتها إلى مدينة أخرى!!!

كل الاحتمالات واردة في حالة مريم، فهي فتاة متهورة رعناء، لكن سلمى بإحساس الأمومة الطاغي عندها كانت متأكدة بأن ابنتها لم تغادر دبي، موجودة في مكان ما هنا في دبي...

ليس من الصعب ملاحظة اهتمام أحمد الحقيقي بأمورها الخاصة، فقد توافقت أفعال أحمد مع سايكولوجية مريم الأنثوية، لدرجة أنها شعرت بالأمان، فتمنت ان تكمل حياتها معه...

كانا يتحدثان عبر الهاتف لساعات طويلة كل ليلة، ينصب حديثهما في معظم الأحيان عن مستقبلهما وأحيانا يسألها إذا وصلها رد ما من مريم فتجيبه بالنفي، كانا يعرفان ماذا يحزنهما فيتجنبا الحديث عنه، أرادا السعادة التي حرما منها لسنوات طويلة، فكان قرارهما بالزواج قرار نهائي لا رجعة عنه مهما حصل...

(19)

لم تسع قلب أحمد الفرحة بموافقة سلمى على الزواج، فقد أحبها وتمنى أن يكمل حياته معها... طار من الفرح، تمنى أن يصرخ بأعلى صوته باسمها، تمنى البوح بما يعتمل في صدره من حب لكل العالم...

تناول هاتفه النقال بشكل لا إرادي وطبع أرقام بيت العائلة في القدس، الوقت ليس متأخراً هناك في المدينة العتيقة، فالفرق بالوقت ساعتين، في هذه الساعة يكون والدي قد عاد من صلاة العشاء في المسجد الأقصى...

ـ هلو... مساء الخير، كيفك يمّا؟

-أحمد... كيف حالك؟ كيف شغلك؟ إن شاء اللّه منيح...؟

ـ أنا بخير يمّا كل شي تمام، اشتئتلك كثير واشتئت لأبوي، أبوي موجود؟ في خبرية حلوة بدي أخبركم إياها...

-قلي يا حبيبي، فرحني... شو الخبرية؟

ـ قبل... قولي لي وين أبوي؟

-هيو هون استنا ...يا حاج تعال احكي مع أحمد... هالو...آه يا با كيفك وكيف شغلك؟؟

ـ أنا بخير يا با، كنت حابب أبشركم...

-خير إن شاء اللّه...

_ خير يا با... خير... أنا قررت أتزوج...

-أو... منين لقيت عروس؟ من أي بلد؟ هل هي قدسية ولا خليلية؟ ولا من الشمال؟

_ لا يابا... هي من لبنان...

-وشو وداك ع لبنان؟ قلة بنات في بلادنا يابا... اللّه يهديك...

_ يابا البنت كثير منيحة، راحين تحبوها إن شاء اللّه...

-يابا هذول بنات لبنان مش من ثوبنا، وما راحة تتأقلم معنا، أنت متأكد منها؟

_ أنا متأكد أنها راحة تعجبكم، وراحه تدير بالها عليكم يابا... ما تقلق.

-طيب يا حبيبي، اللّه يوفقك، ويهنيك... وإمتى العرس ؟

_ الشهر الجاي، وأنا بجهز إلك وأمي تأشيرة زيارة لدبي... وإن شاء اللّه ما بصير شي إلا لمن تكونوا أنت وأمي هون...

-اللّه يرضى عليك وييسر أمرك يا رب...

أم أحمد بدأت تزغرد فرحانة بالخبر السار، وأبو أحمد يقول لها: خلص يا حجة الناس نايمين، وهي مستمرة بالزغاريد... واحمد سمع الزغاريد وصار يضحك ويضحك ويضحك من شدة الفرح...

يابا احمد... اعمل كمان تأشيرة لعمك أبو محمود هذا اخوي وبستنا مثلي اليوم اللي يفرح فيك؟

_ حاضر يابا، ولعمي تاج راسي أهلا وسهلا بكم جميعا... واللّه نفسي أجيب كل العيلة لدبي في يوم عرسي، بس أنت عارف يابا صعب جدا...

-اللّه يرضى عليك ويسعدك... واللّه هذا الخبر إنو ريّح قلبي... شو لازم الجيب معنا من القدس يابا يا أحمد؟

(أم أحمد مقاطعة حديثهم...)

-هات أحكي معه شوي يا حاج... هلو أحمد... حلوة عروستك يما؟ شو اسمها؟ بيضة ولا سمرة؟

_ بيضة يما زي القمر... متل ما بدك... اسمها سلمى...

أمي تحب البنات البيض متأثرة بقول البهاء زهير:

" يا مغرما بالسُمر ما أنا فيهم لك متبع

لكن على حب الحسان البيض قلبي قد طُبع"

اللّه يوفقك يما، أنا حوشتلك شوية ذهب لعروستك رايحه أجيبهم معي يما... اللّه يهنيك...

_ يما خليهم الك الذهبات، بتلبسيهم بعرسي وبالأفراح والمناسبات، الحمد للّه يما كل شي مرتب عندي... بس أنت تعالي انبسطي وشوفي عروستي اللي رايحه تحبيها...

-طيب يما اللّه يرضى عليك... خذ أبوك... آه يابا عايز إشي، بدك نجيب معنا إشي؟

_ لا، يابا ما بدي إلا سلامتكم... يلا مع السلامة... سلموا على الجميع.

أغلق أحمد سماعة الهاتف، وجلس على أريكته يتصفح قائمة الأصدقاء للاتصال بهم ودعوتهم لفرحه، وتناول ورقة بيضاء وقلما أزرق، وبدأ يدون أسماء وأرقام هواتف من يود دعوتهم على عرسه، فدون هواتف زملاء وزميلات العمل، وأسماء جميع أقاربه حتى البعيدين منهم... أعد قائمة طويلة نسبيا، وضعها على الطاولة بجانب سريره... وأخلد للنوم...

20

أنهت سلمى جميع استعداداتها للعرس، فدعت زميلاتها في الصالون، كما لم تنس دعوة بعض زبوناتها اللواتي تعرفهن منذ زمن طويل، ودعت حفصة، التي فرحت كثيرا بالخبر السار...

استعدت جميع العاملات في الصالون للعناية بالعروس زميلتهن... فتناوبن على العناية بها طيلة العشرة أيام التي سبقت يوم الزفاف، وقد افتتح

الصالون أبوابه خصيصا لسلمى يوم زفافها من ساعات صباح يوم الجمعة الموافق 2012/8/24، أصرّت جميع العاملات على الاعتناء بالعروس زميلتهن، وصاحبة الصالون مدام سماح هي من صديقات سلمى وابنة قريتهم، واتصلت بعائلتها هاتفيا في لبنان، ولم تدع أحدا منهم إلى حفل زفافها، فقد أخبرتهم للعلم فقط...

مدام سماح وأحمد ساعدا سلمى في اختيار بذلة العروس البيضاء، تجولوا يوما كاملا للبحث عن فستان ابيض بسيط، فلم يتركوا محلا في شارع أبو بكر في دبي إلا وبحثوا فيه، حتى وجدوا فستانا أحبته سلمى وأعجبت به؛ لأن أحمد أشار إليه أول ما رآه على لعبة

العرض في واجهة المحل، وعندما جربته ظهر مناسبا وجميلا جدا. وبدت سلمى في هذا الفستان رائعة جدا، حتى أن العاملات في محل الملابس أعجبن بها في الفستان كثيرا. الفستان بسيط جدا، أبيض على أطرافه دانتل مزركش بعناية فائقة، عليه بعض خرز اللؤلؤ الصناعي الذي يميل بلونه إلى السكري، وصدره غير مفتوح كثيرا، وطوله مناسب لطولها، وكأنه مفصل على كسمها...

تناولوا جميعهم طعام الغداء في أحد مطاعم المنطقة، وأسرعوا بالعودة إلى بيت أحمد في برجمان، ليستريحوا من عناء التجوال في هذا الحر الذي لا يُحتمل...

دخلت سلمى وسماح لتستريحا معا في غرفة الضيوف وأغلقتا على نفسيهما الباب، ودخل أحمد غرفته ليستريح قليلا، فما كاد يضع رأسه على الوسادة، حتى أخذ يفكر بحبيبته سلمى...

كم هي رائعة ورقيقة، تتعامل مع الناس جميعا بأدب واحترام، فهي مثالية بكل شيء، لا تختار إلا ما تعتقد بأنها ستستفيد منه، ولا تشتري الشيء إلا إذا تماشى مع ذوقها...فهي تختار الأشياء بناءً على إحساسها، بالنظر أو بالشعور قبل أن تلامسها بيديها، وغالبا ما تكون على حق في اختيارها، ما جعلني أقلدها في هذا الأمر...

(21)

أقام أبو أحمد في بيته حفلا موسيقيا حضره أصدقاؤه، وأقاربه وعزف صديقه أبو لؤي على العود، شربوا الليمونادة والتمر هندي والجوز، وتحلوا بالكنافة بالجبنة، والبقلاوة، ودخّنوا التمباك العجمي، وتجلّى أبو لؤي بعزف أغاني عبد الوهاب، وفريد الأطرش، وكارم محمود ومحمد قنديل، فشلة الحاج أبو محمود شلة أصيلةـ تطرب على عزف العود وخاصة عندما يتجلّى أبو لؤي، فيعزف لهم موسيقا أغنية "أول همسة" وكأنه فريد الأطرش بزمانه، وأحلى أغنية يحبها الجميع

ويتمايلون على أنغامها العذبة أغنية كارم محمود "سمرة يا سمرة مرة في مرة" هذه الأغنية يسلطن عليها أبو أحمد فيبدأ بالغناء بمصاحبة موسيقى العود، وكلما انتهى من الغناء يصيح الرجال بصوت واحد: " اللهّ اللهّ اللهّ ... اللهّ ينور عليك يا حاج، عيدها وحياة أحمد عيدها، فيعيد الغناء مرات عديدة، وعندما يغني أغنية "عنابي"... تقوم الدنيا ولا تقعد، فكل الرجال يحفظون كلماتها عن ظهر قلب...سبع ليالٍ أقام أبو محمود الأفراح، والجميع سعداء بسعادة الحاج أبو أحمد... حارة السعدية من أولها لآخرها منورة بالإضاءة والفرح، مثل ليلة عيد الفطر، طوال الليل منورة بأنوار الزينة مختلفة الألوان...

الحاجة أم أحمد مع النساء يرقصن ويزغردن فرحات مستبشرات، أم أحمد فخورة بابنها البكر الذي قرر الزواج بعدما فشل في زواجه من ابنة عمه، هي تزوجت من بعده وخلفت ثلاثة أولاد وبنت واحدة، ربنا وفقها وأكرمها بعد انفصالها عن ابن عمها...

حاولت أم أحمد إقناع ابنها عشرات المرات بالزواج من جديد وأرسلت له صور نصف بنات المدينة تقريبا، لكنه لم يوافق على أي منها، فقد كان قراره شبه قطعي بمقاطعة الزواج، ما أدى إلى حزن والدته حزنا عميقا صار كالجرح الغائر، ولكنه اليوم قد أعاد لها بهجتها وشَفُى جرحها بقراره الزواج من امرأة يحبها، فقد زرع الأمل بقلوب عائلته حتى عمه والد زوجته السابقة فرح فرحا شديدا، فكان يقدم الضيافة

للمحتفلين بيديه، فيرجوه أبو أحمد بالجلوس لكنه يرفض بإصرار، الكل فرح، وسعد والأولاد يتسابقون على اقتناص بعض الحلوى والبقلاوة فيقول لهم الحاج أبو أحمد: يا أولاد لا تتسابقوا فيه بقلاوة بتكفي القدس كلها، كلوا صحتين وعافية وعقبال عند كل الشباب...

جهّزت أم أحمد أكياس الملبس والحناء ووزعتها بنفسها على الجارات قبل سفرهم بيوم واحد، وفي السهرة أقامت حفلة الحناء للنساء فتزينَّ بالحناء الهندية الحمراء... ودعين للعروسين بحياة سعيدة، ثابتة، مثمرة...

(22)

باتوه دبي، سفينة الأحلام، المكان الرومانسي الذي اختاره احمد لعرسه، ليسعد قلب حبيبته، سفينة الأحلام قبلة المحبين العاشقين الحالمين، في خور دبي، مقابل السفارة الأمريكية، ترسو في مياه الخور أجمل سفينة تحلم كل فتاة بقضاء وقتٍ ما على سطحها، على جانبي الخور تلك الأبراج الشاهقة التي تقف شاهدة حية على عظمة الحضارة الإنسانية، وعلى عرس سلمى وأحمد الأسطوري، لبس العاملون ملابس السهرة؛ بدلات سوداء وقمصاناً بيضاء مع ببيونة

سوداء، وكذلك العاملات لبسن قمصانا بيضاء وجاكيتات سوداء كلاسيكية وتنانير سوداء أنيقة، وقف العاملون صفين، مستعدين لاستقبال العروسين وضيوفهما، في الساعة السابعة بدأ الضيوف بالحضور تباعا، فتاة وشاب يتفقدان الدعوات بكل أناقة، العروسان سيأتيان قبل موعد الإبحار بربع ساعة...

عُزفت أثناء الاستعدادات موسيقى (فيفالدي) الفصول الأربعة بناءً على طلب أحمد الذي أراد حفلا كلاسيكيا من الطراز الأول... بوفيه الطعام جاهز بالكامل، فيه كل الأصناف التي تشتهيها النفس، السلطات؛ سلطات الخضار والسيسرز واليونانية والتبولة والحمص والمتبل وسلطة الخضار الفلسطينية وسلطات لبنانية حتى الحويرنة موجودة؛

لأنّ أمه تحبها كثيرا، والسلطة التركية والجرجير والكوزبرة والملفوف بلونيه والكبة المقلية والنخاعات والكبدة وسلطة الخيار، أكثر من ثلاثين أو أربعين لونا من السلطات؛ أما الأسماك، فحدِّث ولا حرج وعلى رأس بوفيه السمك: السلطان إبراهيم، والسلمون، والدنيس والهامور وسمك الملوك، والكابوريا والقريديس واللوبيستر، والتمبورة، والكلماري، وأطباق مختلفة من اللحوم المطبوخة على الطريقة التايلندية والفلبينية والغربية والعربية؛ والحلويات تتربع على عرشها أم علي، وألوان أخرى كثيرة بالإضافة إلى الفاكهة...

فتاتان وشابان يحملان صوان دائرية صُفت عليها كؤوس الشراب المختلفة يتجولون بين الضيوف وكل يتناول ما يوافق ذوقه من مشروب منعش... درجة الحرارة

خارج السفينة تقارب الأربعين مئوية، والجو حار ورطب للغاية...

الكل ينتظر بشوق... الساعة تبتعد عن السابعة والنصف بقليل، العروسان بعد دقائق معدودة سيصلان، والكل يتأهب لاستقبالهما، الكؤوس أعيدت للصواني الفارغة، والعاملون يصطفون في صفين متوازيين من جديد، والضيوف يتجمعون في صدر القاعة، وعيونهم مصوبة نحو المدخل الذي أغلق بدفتين من خشب السدر البني اللون، يمسك فتى الدفة اليمنى وتمسك فتاة بالدفة اليسرى، وتتبدل الموسيقى لتعزف السمفونية التاسعة لبتهوفن...

هدوء وانتظار وترقب...والنساء والرجال يحاول كل منهم المرور على هندامه مرورا أخيرا، الموسيقى تصدح، ولحظة الحسم تقترب، الفتاة والفتى يفتحان الباب بحركة متوافقة، أحمد وعروسه يمشيان نحو الداخل بخطى بطيئة تناسب نغمات بتهوفن، الضيوف والعاملون يصفقون لهم بحرارة والعروسان يبتسمان برقة المناسبة الجميلة... ويدخل خلفهما كل من الحاج أبو أحمد وزوجته، وعم العريس وبعض أقاربه، وصديقات العروس مدام سماح وزميلاتها...

العروسان يجلسان في صدر القاعة على مقعد خاص وثير، وتقدم لهما كأسا ليمونادة كما تحبها سلمى..

الشيخ الذي يسجل العقود يجلس على كرسي غير بعيد عن العروسين، وأمامه طاولة خشبية صغيرة، وبجانبه الحاج أبو أحمد والعم محمود، ويقف الضيوف على جانبي القاعة لمشاهدة الحدث الجميل عقد قران العروسين الرائعين...الساعة تقارب الثامنة والربع، وقد تهيأ الجميع للحظة الحسم، فتح الشيخ دفتره الكبير، فرده على الطاولة أمامه، واخذ يقلب صفحاته، تناول من يد أبي أحمد جوازي سفرهما، وأخذ ينقل بعض المعلومات ويدونها على صفحة دفتره الكبير، الكل ينتظر ويترقّب،العروس فرحة تبتسم للجميع، والعريس يضغط على يدها اليسرى بحب وحنان، ومصور الفرح يسجل بعدسته الحديثة أولا بأول، ولا يفوته التفاتة، وصوت محركات السفينة يأتي رتيبا يطغى على

أنفاس الحضور، وخفقات قلبيَّ العروسين تمتزج مع أحلامهم الوردية... الشيخ يسجل المعلومات...ببطء وتروٍ كعادته في مثل هذه الحالات، وما زال الجميع يترقب توقيع العروسين والشهود...ترتفع الأنفاس وتبلغ القلوب الحناجر... ويطلب الشيخ بطاقات الشهود، ليكمل تعبئة النماذج، فجأة تُسمع جلبة غير عادية على مدخل السفينة، الخارجي، تتوجه أنظار الجميع تجاه الأصوات، الجلبة تزداد وتقترب من البوابة الداخلية، أحد الضيوف يقول: " ثمة شخص يريد الدخول بدون دعوة، ويصر على الدخول، وآخر يقول: إنها امرأة... الحاج أبو أحمد لتدخل أهلا وسهلا بها هذا فرح الجميع...فوجئت سلمى وتغير لونها... وفوجئ أحمد... تحير الحضور وبدأ الهمس والسؤال... كانت القادمة مريم... وقفت على

المدخل أمام الجميع، تلبس تنورة من الجينز قصيرة جدا تكاد لا تستر شيئا من فخذيها، وتلبس بلوزة مكشوفة حتى كتفيها، ونصف صدرها عارٍ... تضع على وجهها مساحيق بصورة ملفتة جدا، وتحمل بيدها هاتفا نقالا وعلبة دخان من نوع "مالبورو" أبيض، وقفت أمام الجميع مخاطبة أمها: جئت لأبارك لك يا ماما...

ارتفع صوت الهمس وتلون وجه والد العريس وراح ينظر في جدة إلى وجه زوجته؛ والدة العريس التي لاحت حبات عرق لؤلؤية على جبينها. وقفت العروس جالت بنظرها على المكان نظرت إلى الحاج أبي احمد وإلى الحاجة الأم، ونظرت باتجاه سماح وزميلاتها وجميع الضيوف. كادت تقع من مكانها، صمتت وهي تقلع خاتما من يدها اليمنى... أمسكت يد أحمد فتحت كفه ببطء أشد

من بطء الشيخ، ووضعت الخاتم في كفه وأعادت إغلاقها قائلة لأحمد: "يبدو أنني لن أستطيع إكمال الطريق يا حبيبي...وداعاً..." وقبل أن يفيق من صدمته غادرت سلمى ممسكة يد ابنتها واختفتا عن الأنظار بأسرع من خفقات قلب العريس.

-انتهت-